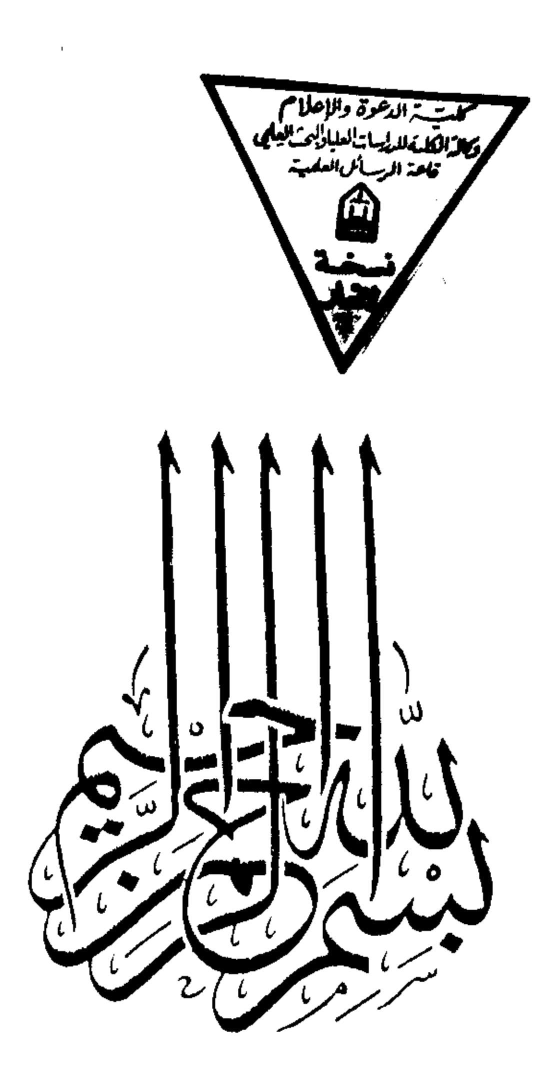
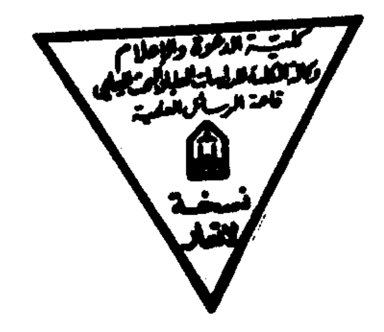

كلية الدعوة والإعلام
وكالة الكلية للدراسات العليا والبحث العلمي
قاعة الرسائل العلمية
نسخة
بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

التدابير الامنية في غـزوة فتـح مكـــة

مقدمـــــة :

لقد بعث الله رسوله بالهدى ودين الحق ليـنصره على الدين كله ، ومنذ فجر الاسلام والرسول صلى الله عليه وسلم يعمل جاهدا وبكل الوسائل علـــى اخراج اهله وقومه وسكان شبه الجزيرة العربية كلها والعالم آجمع مــــن الظلمات الى النور .

بدأت دعوة الاسلام على يديه سرية ثم آمر بالجهر بها وكانت هنـــاك آسباب وتدابير آمنية جعلت الدعوة في بدايتها سرية حتى لا يفاجأ المسلمون في بداية تكوينهم وهم قلة تعد على اصابع اليد الواحدة لا تستطيع الدفاع عن نفسها أو مقاومة الأحداث .

ولكن عندما جهر الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، بدأت قريـــش تتخذ بعض التدابير الملائمة لمنع المسلمين من التمسك بدينهم من ناحيـــة ، ولمنع دخول قرشيين جدد الى الاسلام من ناحية آخرى .

وكانت تدابيرهم في ذلك بعضها اغرائي بأن يتم اغراء بعــــض المسلمين بكل وسائل الترغيب بالعودة الى دينهم السابق ودين قومهم ، ولكنهـم

لما ثبتوا على الحق الذي آمنوا به ، اتجه اسلوبهم في المقاومة الى اتخاذ تدابير من نوع آخر فيها كثير من العنف والشدة ، فكان التعذيب والسخرية والقتل احيانا من الوسائل التي استخدمتها قريش في حماية مكانتها ومواجهة دعوة الاسلام ·

وأحس الرسول صلى الله عليه وسلم بحاجته الى تدابير تحفظ على المسلمين – وهم قلة – حياتهم وعقيدتهم ، فكانت الهجرة من أهم التدابير في هذا الشأن · فهاجر المسلمون هجرة أولى وثانية الى الحبشة ·

ثم كانت الهجرة الكبرى الى المدينة ، حيث اذن الرسول صلى الله عليه وسلم لصحابته بترك مكة والذهاب الى يثرب ، ثم هاجر هو اليها بموجب أمر الله سبحانه وتعالى ، على الرغم من أن مكة هي أحب بلاد الله اليه ، فكانت الهجرة بحق هي التدبير الالهي العظيم لتأمين الدعوة والدولة الاسلامية ، ولايجاد مناخ مناسب لتكوين الدولة وحشد القوات والعودة الى قبلة المسلمين وجعلها القاعدة الأمينة للاسلام ·

وقد ابرزت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم عددا كبيرا من التدابير الأمنية التي اتخذت من أجل تأمين سلامتها ومواجهة الكفار الذين يحرصون على عدم السماح للرسول صلى الله عليه وسلم بترك مكة ، لما في ذلك من أثر كبير

على سيرة الدعوة الاسلامية وقوتها وانتشارها .

ولكن الحق غالب باذن الله ، فهاجر الرسول القائد في حماية الله تحت عين وبصر المشركين .

ومن التدابير التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد ، اخفاء خبر الهجرة ، ونوم علي بن أبي طالب في فراشه ، وخروجه سرا الى غار ثور باتجاه معاكس لوجهته الحقيقية طريق المدينة وغير ذلك من التدابير التي أشرنا اليها في صلب الموضوع .

فكانت الهجرة وما تلاها من احداث وغزوات ثم ما كان من غزوة فتح مكة بأهميته الكبيرة في تاريخ الاسلام والمسلمين وانتشار الدعوة الاسلامية بعده بشكل لم يسبق له مثيل .

كان ذلك كله سببا في ابراز أهمية التدابير الامنية في حماية الدعوة الاسلامية ، مما حفزني على اختيار التدابير الأمنية في غزوة الفتح موضوعا لبحثي المكمل لدرجة الماجستير في قسم الدراسات العليا بكلية الدعوة والاعلام جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .

ولما كان الموضوع كبيرا ومتشعبا ، ويتسع باتساع وكثرة الغزوات الاسلامية اخترت غزوة الفتح بما لها من أهمية خاصة لتكون المحور الرئيسي

الذي اتناول التدابير الأمنية من خلاله وان كنت قد استفدت بكافة التدابير التي وجدتها مستخدمة في الغزوات والحركات الاسلامية ولها علاقة مباشرة أو شبه مباشرة في غزوة الفتح .

وهذا الموضوع له أهمية خاصة لأنه يكشف اساليب حماية الدعوة ، ولما كانت الدعوة الاسلامية في حاجة الى حماية في كل عصر مهما كانت الدولة الاسلامية قوية ، وفي عصرنا الحاضر هي احوج ما تكون الى حمايتها ، فان دراسة هذه التدابير لتعطينا وسائل ذات أهمية تستطيع الاستفادة منها في حماية الدعوة ، وصيانة حركتها بالاضافة الى أنها تكشف لنا جانب من حياة المسلمين في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وكيفية علاقة المجتمع الاسلامي الأول بالمجتمعات التي كانت تصارعه سواء في السلم أو الحرب .

المنهج :

وقد اخترت لهذا البحث منهجا يمكن أن يجمع عناصره في نسق كامل يبرز الفكرة الاساسية التي دفعتني الى اختيار الموضوع .

والمنهج الذي استخدمته في هذا البحث من عنصرين :

(١) وصفي تاريخي : قمت فيه بوصف وبيان أهم التدابير التي استخدمت في غزوة فتح مكة ومالها من علاقة بالفتح من مصادرها الاساسية

في كتب التاريخ والسيرة النبوية .

(٢) تحليلي : حيث قمت بتحليل أهمية هذه التدابير والدور الذي قامت به ، كما أشرت الى الدروس المستفادة من استخدام الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه التدابير الأمنية والنتائج والتوصيات التي توصلت اليها .

وأهم المصادر التي استفدت منها في ذلك تفاسير القرآن الكريم وكتب السيرة ، وكتب التاريخ الاسلامي الخاصة والعامة . الا انه واجهتني بعض الصعوبات في الحصول على مراجع تشير الى التدابير الأمنية بصفة خاصة ، مما حدا بي لاستنتاجها من مصادرها الاساسية بطريقة أخذت مني وقتا وجهدا كبيرين .

وقد اعتمدت في ذلك خطة موسعة للبحث في موضوع التدابير الأمنية نظرا لاتساعها كما اسلفت فقد قسمت البحث الى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : وقد تطرقت فيه الى :

الرسول والدعوة والتدابير التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لتأمين طريق الدعوة الجديدة في مكة .

وتناولت في هذا الفصل كمبحث تمهيدي بداية الدعوة الاسلامية سرا في مكة والتدابير الأمنية التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لتأمين

مسيرتها وقسمت هذا الفصل الى ثلاثة مباحث ناقشت في الأول أهمية الدعـــوة بالنسبة للعالم أجمع وكونها رحمة للعالمين .

وفي الثاني : ماهية القوى المعارضة للدعوة ووسائلها في صدهـــا والتدابير الأمنية التي اتخذت لسلامتها .

وفي الثالث : ماهية الهجرة الى المدينة وأسبابها ونتائجها ومـــا اتخذ من تدابير أمنية لضمان نجاحها .

الفصل الثاني : وقد تطرقت فيه من خلال مبحثين الى :

المفاهيم العامة حول غزوة فتح مكة ، وتحليل كامل لهذه الغزوة بحيـــث شمل أهميتها ، وأسبابها ، ونتائجها .

الفصل الثالث : وقد تطرقت فيه الى التدابير الأمنية في غزوة فتح مكـــة بحيث قسمتها الى قسمين كبيرين في مبحثين :

المبحث الأول : ناقشت فيه التدابير الوقائية التي اتخذها الرسول صلى اللـــه عليه وسلم لتأمين قاعدة الاسلام في المدينة والعمل علـــى استتباب الامن فيها وكذلك العمل على اظهار قوة المسلميـــن في المدينة .

وفي المبحث الثاني : ناقشت التدابير المباشرة وهي التدابير الفعلية التي قام الرسول بها اثناء الحرب والسلم وقسمتها الى ثلاثة اقسام التدابير قبل بدء الغزوة ، والتدابير اثناء الغزوة ، والتدابير بعد الغزوة .

المبحث الثالث : وقد تطرقت فيه الى الدروس المستفادة من التدابير الأمنية في غزوة الفتح وقسمته الى ثلاثة فروع :
ناقشت في الأول الدروس المستفادة في محاربة الاعداء
وفي الثاني : الدروس المستفادة في معاملة الاعداء ، وفي الثالث الدروس المستفادة في تأمين الدعوة ، وبعد ذلك الخاتمة وتشمل النتائج والتوصيات .

وأني أرجو أن يقبل كل من ساعدني في اخراج هذا البحث عميق شكري وأمتناني لما قدموه لي من العون لانجازه والله من وراء القصد .

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول :

تمهيـــــد : الرسول صلى الله عليه وسلم والدعوة :

بعث الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والفساد يعم بلاد العـــــرب والروم وفارس وغيرها من اصقاع الدنيا فعميت بذلك القلوب وتاهت النفـــــوس وانتشرت عبادة الاصنام والاحجار والاشجار والنجوم وغيرها من الجمادات التـــي لا تنفع ولا تضر حتى بين من يدعون ان لديهم ديانات سماوية كاليهـــــود والنصارى الذين أخذوا يعبدون الشهداء والقديسين ونسوا الله وعظمتـــــــه فنسيهم .

فعبدوا المسيح عليه السلام بعد أن وصفوه بصفات الله ، ولم يتوانـوا في وصف أم المسيح مريم عليها السلام بصفات الله العلي القدير .

وقد حارت القلوب والعقول في معنى الأب والابن وروح القدس وجعلهـــــا الها واحدا ، ولم تهتديء لمعنى التوحيد .

وكانت النواحي الخلقية والاجتماعية بالاضافة الى الدينية مهملة ليـــس لها قدر أو مكان في نفوس الناس فأرتكبت المنكرات وعم الضلال جميع انحـــــاء الارض فأصبح الصراط المستقيم ليس له وجود على الأرض وهذا يتضح من قولـــــه تعالى " ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي

عملوا ، لعلهم يرجعون)[1] .

قال ابو الحسن الندوي[2] " بعث محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزا عنيفا ، فاذا كل شيء فيه في غير محله .. ونظر الى العالم بعين الانبياء ، فرأى انسانا هانت عليه انسانيته ، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر ، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر ، رأى انسانا معكوسا قد فسدت عقليته .. وفسد نظام فكره ، وفسد ذوقه ، رأي مجتمعا هو الصورة المصغرة للعالم ، كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله ، قد أصبح فيه الذئب راعيا والخصم الجائر قاضيا ، وأصبح المجرم فيه سعيدا حظيا[3] ، والصالح محروما شقيا ، ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية ، وتسوقها الى هوة الهلاك .

رأى معاقرة الخمر الى حد الادمان ، والخلاعة والفجور الى حد الاستهتار ، وتعاطي الربا الى حد الاغتصاب واستلاب الأموال ، ورأى الطمع وشهوة المال الى حد الجشع والنهامة ، ورأى القسوة والظلم الى حد الوأد وقتل الاولاد . رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولا ، وعباد الله خولا[4] ، ورأى احبارا ورهبانا أصبحوا اربابا من دون الله ، يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

---

(١) سورة الروم : ٤١

(٢) "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ " ص ٧٨ – ٧٩

(٣) ذا منزلة مقربة وحظوة لدى السلطان

(٤) خدما وعبيدا

رأي المواهب البشرية ضائعة أو زائفة لم ينتفع بها ، ولم توجه التوجيه الصحيح ، فعادت وبالا على اصحابها وعلى الانسانية ، فقد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية ، والجود تبذيرا واسرافا ، والانفة حمية جاهلية ، والذكاء شطارة وخديعه، والعقل وسيلة لابتكار الجنايات ، والابداع في ارضاء الشهوات .

رأى الأمم قطعانا من الغنم ليس لها راع ، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه [1] ، والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه ، ويجرح به أولاده واخوانه " انتهى كلام أبي الحسن الندوي .

كانت كل قبيله عربية تناحر جارتها وتتخذ ادنى الاسباب للاغارة عليها والاستيلاء على أموالها وموارد رزقها واستعباد ابنائها وسبي نسائها وأطفالها ، لذلك تحكم الأقوياء في الضعفاء ، والاغنياء في الفقراء، فأنتشر الذل والخوف والفقر بين الناس وفقد الأمن وأضطربت الأحوال . وبلغت العداوة والبغضاء بين الناس أوجها لأتفه الاسباب وشدة التنافس بين القبائل ، كما حدث بين عبس وذبيان ، والأوس والخزرج ، وبكر وتغلب ، وربيعة ومضر ، وأمية وهاشم في مكة .

وكانت العصبية سائدة بين القبيلة الواحدة تثيرها ادنى نعرة قبلية فتهلك الحرث والنسل .

---

(١) الغارب ما بين السنام الى العنق

لذلك كانت الحروب مستمرة بينها ، وكان للشعراء دور في اذكاء نار الحرب وزيادة اضرامها لتجعل الاطفال يتامى والنساء أرامل حيارى . ولم يهمل الله سبحانه وتعالى خلقه وقد جرت سنته أن يأتي بالنور بعد الظلام ، ويبعث من يحيي العقول ويسعى لايقاظ القلوب والنفوس من غفوتها ويسير بها الى الصراط المستقيم ويأخذ بها الى الطريق الصحيح والامن والراحة والسلام .

لذلك بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وقد استشري الجور والظلم والفساد وأنتشر الشر والجهل والرذيلة وكان العالم كله في ضلال وظلمة شعر معه الناس جميعا بالحاجة الملحة الى من ينقذهم مما هم فيه من البؤس والشقاء ، ويكون رحمة مهداه ورأفة منزلة من عند خالق عظيم لا ينسى خلقه ولا يخفي عليه شيء في الارض ولا في السماء .

فقد بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو عالم بالبيئة التي ولد ونشأ فيها مدرك لما يحيط بالعالم من شرور وضلال ومفاسد ومظالم وقد عرف اسرار الحياة ، وأسباب الشقاء والسعادة ، وأدرك بصورة جيدة أسباب أمراض المجتمع بأسره .

وعندما أمره سبحانه وتعالى بتبليغ الدعوة وايصال الرسالة الى الناس اجمعين كان يملك سلاح الأخلاص لله في السر والعلانية ، والايمان والثقة بالله ، فأبتدأ في تبليغ رسالته وأداء أمانته وهو منشرح الصدر واثق من

نصرة الله له ، قال تعالى " يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدي القوم الكافرين " (١) .

فالرسول صلى الله عليه وسلم قد آمر بتبليغ كل مأنزل اليه من ربه وقد فعل فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، ولم يكتم شيئا مما أمره الله بتبليغه .

وما أن أعلن صلى الله عليه وسلم أن الدين لله الواحد القهار ،ودعا الناس كافة للايمان بالله وحده لا شريك له والاخلاص في عبادتهم ، والتعاون على البر والتقوى وترك الاثم والعدوان ومعصية الرسول .

ونتاجا لدعوته صلى الله عليه وسلم لاصلاح البشرية تكالبت عليه القبائل وناصبته العداء جهلا منها بالهدف الذي ينشده لصالحها وتعصبا آعمى لا يستند على آي مبدأ سوى العصبية الجاهلية والاستمرار في الظلام والغي والعدوان .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرحمة المهداة للناس أجمعين ، لم يضيق بذلك صدرا ، واستمر في تنفيذ ما أمره الله به مستعينا بالله تعالى ومتخذا كافة السبل التي تكفل نجاحه في دعوته والاخذ بيد

---

(١) المائده ٦٧

البشرية جمعاء من الهاوية التي سقطت فيها والبحر المتلاطم الامواج الى بر الأمان المنشود .

وقد ابتدأ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته بالصبر والرفق والأناة ، فكان يعرضها في لين وتودد ، ويقابل الجاهل والسفيه بالاعراض والمسيء بالعفو والاحسان ، ومن حكمته وترويه في سبيل ايصال الدعوة الى الناس تحري وقت حاجتهم ونشاطهم لسماع الدعوة والموعظة الحسنة .

وكذلك كان يسعى الى الايجاز وتبسيط الدعوة للناس مع تفصيل الحجة ودفع الشبهة .

فكان يخاطب كل قوم بما يناسبهم ويتمشى مع مداركهم وقد اعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن واستعمل العقل والمنطق والحجة الواضحة والتفكير المنطقي السليم .

جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ليحرر الناس من سيطرة الكهنة ونادى بأن العبودية لله وحده ، وأن الدين النصيحة ودعا الى ربه بالموعظة الحسنة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال تعالى (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون)[1] . وهو بذلك ينادي بطاعة الله ورسوله ، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وينهي عن الاعمال الباطلة والمعاملات الفاسدة ، فاصلح

---

(١) آل عمران : ١٠٤

المجتمع وسادت العدالة في ربوعه ، وهدأت النفوس ، وتطهرت القلوب ، وتخلصت الانسانية من الظلم والعبودية ،وتمتع الناس بالمساواة والاخاء والأمن والحرية .

التدابير الأمنية التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لتأمين طريق الدعوة الجديدة في مكة :

اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بعض التدابير الأمنية ليضمن السير بالدعوة على الطريق الذي رسمه له ربه سبحانه وتعالى ويتمكن من مجابهة اعداءه صلى الله عليه وسلم مادامت الدعوة لاتزال في مهدها منها :

(١) **الابتعاد عن المجابهة :**

امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى القائل (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أقوم)[١] .
فهذا تدبير الهي نفذه الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته لئلا تحدث المجابهة بينه وبين قوى الطغيان قبل أن يشتد عود الدعوة وتأخذ جميع احتياطاتها لمقاومة تلك القوى .
فكان صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى دين الله سبحانه وتعالى بالحكمة والتروي وقوة الاقناع والحجة البيضاء ، وبذلك ضمن عدم الاحتكاك مع تلك القوى المعادية وأمن طريق الدعوة .

(٢) **الدعوة السرية :**

لم يكن رسول الله صلّى الله عليه وسلم يظهر الدعوة في تلك الفترة

---

(١) النحل ، الآية ١٢٥

في مجامع قريش وأنديتها العامة ، بل تركزت دعوته الأولى لافراد بعينهم رأي منهم فكرا ثاقبا واستعدادا للقبول ، فصدقه وتبعه من كتب الله له الهداية وكذبه آخرون ،

ولم يكن اظهار المصدقين عبادتهم ممكنا في البداية حذرا من تعصب قريش لدينها ووثنيتها ، وانما كانوا يخفون ذلك ، وكل من آراد العبادة يذهب الى شعاب مكة ، ويصلي هناك مستخفيا .
(ولما وصل عدد اتباعه صلى الله عليه وسلم الى ما يقارب الثلاثين ، رأي آن يجتمع بهم ليعلمهم آمور دينهم ويكون منهم النواة الاولى والقاعدة الصلبة ، لمجابهة اعدائه ، فاختار صلى الله عليه وسلم دار (الارقم بن ابي الارقم المخزومي) لتكون مكانا للاجتماعات والمركز الرئيسي للدعوة بالاضافة الى فروع آخرى يتم الاجتماع فيها بدون انتظام كدار (سعيد بن زيد) [1] .

وهذه الاجتماعات السرية تعتبر بداية التحشد لتكوين نواة الامة الاسلامية المحاربة مستقبلا وهو تدبير آمني ذا اهداف بعيدة المدى بالاضافة الى آهدافه الاساسية وهي سرية الحركة .

(٣) الهجرة الى الحبشة :

آمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعض اصحابه بالهجرة الى الحبشة في بداية الدعوة وهو يهدف بذلك الى الاستفادة من عدة مواقف تنتج عن هذه الهجرة .

---

(١) التاريخ الاسلامي ، محمود شاكر ، الطبعة الثالثة ، الكتاب الثاني ،ص ٥٨

منها ابعاد ضعفاء المسلمين عن سيطرة وجبروت كفار مكة وحماية أرواحهم ، وكذلك نشر الدعوة في اماكن اخرى خارج الجزيرة العربية بالاضافة الى ايجاد سفارة بين هذه الدعوة الجديدة وبين ملك الحبشة الذي قال عنه صلى الله عليه وسلم (لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما انتم فيه) (١) .

(٤) الاستفادة من عنصري الاجارة والمنعة :

من التدابير التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لتأمين سلامته الاستفادة من العادات القبلية المتبعة في تلك الفترة كالاجارة والمنعة ونحوها فعندما بدأ صلى الله عليه وسلم بالدعوة كان يمنعه من قريش عمه أبو طالب وبعض عشيرته من بني هاشم ، ولكن عندما مات عمه أبي طالب ضيقت قريشا عليه وبدأت في ايذائه واشتدت في ذلك .

فحاول البحث عن مكان آخر للدعوة ، ولذلك هاجر الى الطائف ولكنه لم يجد قبولا بل استهزأ وشتما وسبا ، فعاد الى مكة وكانت قريش قد علمت بما حدث له في الطائف ، فلم يستطع دخولها حتى اجارة المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، وذلك بعد ان استجار

---

(١) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، محمد فرج الطبعة الثالثة ص ٨٩

بعدد من رجال قريش ولم يجد قبولا ، فاستفاد من مبدأ الاجارة للوصول الى بلده والاستمرار في نشر دين الله .

الفصل الأول

المبحث الأول

ارسال الله عز وجل محمدا رحمه للعالمين

قال تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين)(1) . من هذا المنطلق يتضح لنا أن بعث الانبياء الى الارض لقيادة الامم يعتبر رحمة ورأفة بها لئلا تتخبط في الظلام والجور والفساد .

بل لقد حتم الاسلام على جماعة المسلمين بأن يعتبروا انفسهم مجندين دائما ، لمكافحة البغي ومقاومته ، وليسهموا في استتباب الامن وآقراره على الارض . قال تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء الى أمر الله)(2) .

فالدعوة الاسلامية بحد ذاتها مشروع نهضة يهدف من ورائها منح العالم بأسره رحمة شاملة وأمن وأستقرار ومساواة بين أبنائه .

ولم تكن رسالة الاسلام رحمة للعالمين فقط بل حرصت على ان تهب للبشرية حياة يتوافر فيها كل أسباب الأمن والطمأنينة ، وأخذت على عاتقها

---

(1) الانبياء ١٠٧

(2) الحجرات ٩

أن تسمو بالبشرية الى أعلى مراتب الاستقرار والهدوء .

الفرع الأول : الرسالة وعصر الرسول :

من يستعرض حالة العالم قبل الاسلام ، وما أصابه من محن وقلاقل ، وما اكتنفه من اضطرابات شاملة وحروب طاحنة مدمرة لم ترحمه ولو لفترة وجيزة فقضت على الرجال وأهملت الاطفال والنساء والشيوخ بدون عائل ونشرت الفوضى في اصقاع الارض ، فمن يستعرض ذلك كله يدرك مدى حاجة العالم الشقي البائس الى دعوة اصلاحية تنتشله من براثن الفوضى والضلال والجهل والفساد الى مراحل الهدوء والسلام فهل من عاقل يتصور ان تقوم حرب شرسة تقضي على اليابس والاخضر ولمدة أربعين عاما بين بكر وتغلب بسبب ناقة ، لا أقول ناقة ، بل سهم في ضرع ناقة ، وذلك في حرب البسوس الشهيرة .

وهل من عاقل يتفكر في حرب تقضي على الوف الرجال ، وتيتم الاولاد وتجعل النساء ايامي والامهات ثكالي بسبب التنافس على سباق الخيل كما حدث في حرب واحس والغبراء ، وقد احدثت اضطرابا واسعا وتشردا في القبائل المشتركة في الحرب .

وعلى أية حال فلم يكن هناك جزء من أرض الله الواسعة يهنأ بالأمن والسلام قبيل الدعوة الاسلامية .

يقول " توماس كارليل "(1) (قوم يضربون في الصحراء عدة

---

(1) مؤرخ انجليزي (١٧٩٥ - ١٨٨١) أول من اعترف من الانجليز لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالبطولة والاخلاص في كتابه " الابطال " .

قرون لا يؤبه لهم ، فلما جاءهم النبي العربي أصبحوا قبلة الانظار في العلوم والعرفان ، وكثروا بعد قلة ، وعزوا بعد ذلة ، ولم يمض قرن حتى استفادت أطراف الارض بعقولهم وعلومهم " .

ويقول " سير وليام موير " [1] (امتاز محمد بوضوح كلامه ، ويسر دينه ، وأنه اتم من الاعمال ما يدهش الالباب ، فلم يشهد التاريخ مصلحا ايقظ النفوس ، وأحيا الاخلاق ، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير ، كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم).

ذلكم هم اعداء الاسلام يشهدون على ما قدمه للعرب من مجد وسؤدد بعد أن كانوا متفرقين متشتتين متحاربين يعمهم الجهل والظلام . فاصبحوا قبلة العالم أجمع خلال سنوات قلة ، بسبب اتباعهم لنبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم الذي ايقظ النفوس وأصلح المجتمع . كيف لا ، وهو الرحمة المهداة للبشرية عامة والقائل (من لا يرحم لا يرحم) [2] .

وهو صلى الله عليه وسلم يستقي تعليماته من رب رحيم يتصف بالرحمة ويحب أن يتصف بها خلقه فقال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء) [3] . وقد اتخذ منها اسمين كريمين هما (الرحمن الرحيم) وأمر عباده الاستعانة بهما فقال (بسم الله الرحمن الرحيم) .

---

(١) في كتابه " سيرة محمد "
(٢) رواه البخاري ، من حديث ابي هريرة رضي الله عنه
(٣) الاعراف ١٥٦

وما من نعمة انعم الله بها على عباده الا وهي أثر من آثار رحمته ، فالصحة والعافية ، والمال ، والاولاد الصالحون ، والزوجة ، والعلم ، والهداية ، وراحة الضمير ومعرفة طريق الخير وطريق الشر واتباع الافضل منهما ، كلها من رحمة الله بعبيدة فيجب على الانسان أن ينظر ويتفكر في آثار رحمة الله المحيطة به ، والتي تشمل جميع شئونه في خلقه ، وبدنه ، ومورد رزقه ، وعلمه ، وهدايته ، قال تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الانسان ، علمه البيان) [1].

والرحمة كما اسلفنا من اثر الايمان ، وتعد فضيلة من فضائل الانسان ، تدفع اليها العواطف النبيلة ، والاحساس الانساني الشريف ، وقد وصف الله بها نفسه ، ووصف بها نبيه ، وتفضل بها على خلقه فقال تعالى (انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم) [2] . وقال تعالى (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) [3] . وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحث على التراحم بين الناس (من لا يرحم الناس ، لا يرحمه الله) [4] . فحرى من جاء بذلك كله أن يكون رحمة للبشرية .

(وقد اراد الاسلام أن يطبع الناس بها حتى تمتلئ قلوبهم خيرا وبرا ، وتفيض على الدنيا رجاء واملا) [5] .

---

(١) الرحمن آية (١ ـ ٣)
(٢) الانعام ٥٤
(٣) الانبياء ١٠٧
(٤) اخرجه الترمذي
(٥) دعوة الاسلام،السيد سابق ، طبعة دار الفكر ١٣٩٨ هـ ، ص ١٧١

فطبيعة الاسلام ، سهلة سمحة ، رحيمة ، تبعث على بذل المعروف، واغاثة الملهوف ، واعانة المحروم ، وكف الغبن والظلم ، ومنع التعدي والبغي بين الناس . فالاسلام يمنع الكبر والعجب والخيلاء ، والتطاول على الناس ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول (لا يدخل الجنة من كان في قلبة مثقال ذرة من كبر) .
ويقول تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين)[1] .

ولقد كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم - رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده والمبادىء التي جاء بها كانت غريبة في أول الأمر على ضمير البشرية ، بعد ما كان بينها وبين واقع الحياة الواقعية والروحية من مسافة ، ولكن البشرية أخذت من يومها تقرب شيئا فشيئا من آفاق هذه المبادىء ، فتزول غرابتها في حسها ، وتتبناها وتنفذها ولو تحت عنوانات آخرى[2] .

الفرع الثاني : الدعوة الاسلامية جاءت لوضع ما بين الناس من فوارق :

لقد جاء الاسلام لينادي بانسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية ، لتلتقي في عقيدة واحدة ونظام اجتماعي واحد .

---

(١) القصص آية ٨٣

(٢) في ظلال القرآن المجلد الخامس الجزء ١٧ ، ص ٥٦٩

ولقد جاء الاسلام ليسوي بين الناس امام القضاء والقانون ، في الوقت الذي كانت البشرية تفرق الناس طبقات ، وتجعل لكل طبقة قانونا . بل تجعل ارادة السيد هي القانون في عهدي الرق والاقطاع ، فكان غريبا على البشرية ان يأتي من ينادي بالمساواة المطلقة للناس أمام القضاء ، لا فضل لعربي على عجمي ولا أسود على أبيض الا بالتقوى وغير هذا وذلك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمدا صلى الله عليه وسلم انما أرسل رحمة للعالمين ، من آمن به ومن لم يؤمن على السواء ، فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة ، شاعرة أو غير شاعرة ، وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة لمن يريد ان يستظل بها ، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية في هجير الارض المحرقة.

وإن البشرية لفي أشد الحاجة الى حسن هذه الرحمة ونداها ، وهي قلقة حائرة شاردة في متاهات المادية ، وجحيم الحروب ، وجفاف الارواح والقلوب (١) يقول الفيلسوف الانجليزي برناردشو " أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم في العالم بأجمعه لتم له النجاح في حكمه ولقاده الى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة " (٢) .

فقبل أن يظهر الدين الاسلامي كان العالم يمر بموجات فساد افسدت على الناس عقولهم وعقيدتهم فتوجهوا من عبادة الخالق الى عبادة المخلوق وزين لهم الشيطان اعمالهم فعبدوا الاشجار والنجوم والشمس والقمر والحيوان والاحجار والانهار والنار والطعام . فحل التباغض بين الناس وتفككت أواصر المحبة والود وسيطر القوي على الضعيف وأستبد الظالم بالمظلوم وأصبحت الحياة كلها خوف وقلق وطغي عليها

---

(١) المرجع السابق ص ٥٧٠

(٢) كتاب السلام رسالة السماء طبعة اولى محمود النبوي الشال ص ٤٣

الغي والضلال والارهاب والنهب والسلب وهتك الاعراض وسفك الدماء فأصبح الأخ لا يطمئن لأخيه وصار الغدر شطارة والخيانة عادة متأصله بالمجتمع .

ثم قضت مشيئة الله أن يبعث رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم ليصحح عقائد الناس ويقوم ما اعوج من اخلاقهم وسلوكهم وعاداتهم السيئة التي تأصلت في نفوسهم ويخرجهم من الظلمات الى النور , قال تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين)(١) .

فقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ليحرك العقول في الرؤوس والرحمة في القلوب ويبعث الايمان ويثبته في النفوس الحيارى ويستخدم العقل في قيادة البشرية الى النجاة والخلاص بدلا من استخدامه في ابتكار وسائل الغدر والخيانة والطغيان والجبروت وابدال الفكرة الشائعة آنذاك في أن الشجاعة والفروسية تعني الاغتصاب والتعدي على الغير واستلاب اموالهم بالقوة والباطل .

ولم يكن الرسول الأمين الا من سعى الى توحيد الجنس البشري عامة وصهره في بوتقة الاخوة والمحبة ووحدة الهدف فقال تعالى " قل يأيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا " (٢) .

وقال تعالى (تبارك الذي نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا ")(٣) . وقال تعالى (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (٤) .

---

(١) الانبياء ١٠٧

(٢) الاعراف ١٥٨

(٣) الفرقان ١

(٤) سبأ ٢٨

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يطمع في سلطة أو رئاسة أو ملك أو جاه أو زعامة فقد عرضت عليه كلها ورفضها . ولكنه مكلف من قبل رب البشرية جمعاء برسالة السماء ، رسالة الحق والحب والحرية والخير والسلام . والتي قامت فيها بعد اقرار العدل والمساواة بين الناس دون تمييز جنس على آخر أو فئة على أخرى.

وقامت دعوته صلى الله عليه وسلم على الرفق واللين والوحدة والوئام لتمكين الناس من قضاء حوائجهم وتيسر لهم الحصول على ضروريات الحياة ليعيشوا تحت حماية الدعوة الاسلامية في وحدة كاملة وانسانية كريمة وحقوقا محفوظة . ولاقامة صرح العدالة والانسانية والمساواة والاخاء والايمان بالله واليوم الآخر والحب والتعاون وتأصيل السلام الحقيقي على الارض رحمة بمن يسكنها بدلا من التناحر وافناء بعضهم بعضا .
قال تعالى (وأذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداءًا فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا) (١) .

ان المنهج الذي جاء مع محمد صلى الله عليه وسلم منهج يسعد البشرية كلها ويقودها الى الكمال المقدر لها في هذه الحياة (٢) .

---

(١) آل عمران ١٠٣

(٢) في ظلال القرآن ، المجلد الخامس الجزء السابع عشر ص ٥٧٠

المبحث الثاني

القوى المعارضة للدعوة

الفرع الأول : موقف قريش من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم :

حينما نزل قول الله تعالى (وأنذر عشيرتك الاقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم ، الذي يراك حين تقوم ، وتقلبك في الساجدين ، انه هو السميع العليم)(١)

وقوله تعالى (انه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون)(٢)

حينما نزل ذلك صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا ثم نادى :

" ياصباحاه " فأجتمع الناس اليه بين رجل يجيء اليه ورجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يابني عبدالمطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ " قالوا : نعم ! قال " فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " .

فقال ابو لهب ، لعنه الله : تبا لك سائر اليوم ! اما دعوتنا الا لهذا ، فأنزل الله عز وجل " تبت يدا أبي لهب وتب " . رواه الامام أحمد من حديث بن عباس رضي الله عنهما . تلك هي صيحة البلاغ التي أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم فيها لاقرب الناس اليه أن التصديق بهذه الرسالة هو هدفه وهي التي تغنيهم من عذاب الله فهو لا يملك لهم من الله شيئا وأن صلة القرابة لا تنفعهم امام غضب الله .

(لم يزل هذا الصوت يرتج في ارجاء مكة حتى نزل قوله تعالى :

---

(١) الشعراء ٢١٤ ـ ٢٢٠

(٢) القصص ٨٥

" (فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ") (١) فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لنبذ خرافات الشرك وترهاته ، ويذكر حقائق الاصنام وما لها من قيمة في الحقيقة ، يضرب بعجزها الامثال ، ويبين بالبينات أن من عبدها وجعلها وسيلة بينة وبين الله فهو في ضلال مبين .

انفجرت مكة بمشاعر الغضب وماجت بالغرابة والاستنكار حين سمعت صوتا يجهر بتضليل المشركين وعباد الاصنام ، كأنه صاعقة قصفت السحاب فرعدت وبرقت وزلزلت الجو الهادي ، وقامت قريش تستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة ، ويخشى أن تأتي على تقاليدها وموروثاتها) (٢) .

امام هذا لم يجد المشركين سبيلا الا أن يأتوا الى عمه ابي طالب ، فيطلبوا منه أن يكف ابن أخيه عما هو فيه ، فقالوا : يا أبا طالب ان ابن اخيك قد سب الهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه احلامنا ، وضلل آبائنا ، فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلي بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافة ، فنكفيكه .

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا ، وردهم ردا جميلا فأنصرفوا عنه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدعو اليه) (٣) .

على اثر ذلك ولقرب موسم الحج وخوف قريش الاحراج امام وفود الحجاج عندما تسألهم في شأن محمد صلى الله عليه وسلم بعدما تقدم عليهم ولئلا تختلف كلمتهم فيه قروا الاتفاق على كلمة تقال لوفود العرب حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوسهم ،

---

(١) الحجر ٩٤

(٢) الرحيق المختوم صفي الرحمن البادكفوري ، من منشورات رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة ، ص ٩١

(٣) السيرة النبوية لابن هشام مطبعة الحلبي ، الطبعة الثانية ١٣٧٥ الجزء الاول ص ٢٦٥

(فاجتمعوا الى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة ، فقال لهم الوليد : اجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا ، قالوا : فأنت فقل ، قال : بل انتم قولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول ؟ .

قال : والله ان لقوله لحلاوة ، وان اصله لعذق ، وان فرعه لجناة ، وما انتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف انه باطل ، وان أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر . جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك) (١) .

وبعد أن اتفقوا على ذلك أخذوا بتنفيذه فجلسوا في طريق الحجاج حين قدموا للموسم ، فلا يمر بهم أحد الا حذروه اياه وذكروا له ذلك .

(وكان اشدهم ابو لهب فكان يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ويقول للحجاج لا تطيعوه فانه صابئ كذاب) (٢) .

فلما رأت قريش أن ذلك لم يجد في صد محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) المصدر السابق صفحة ٢٧١

(٢) روي ذلك الامام أحمد في مسنده الجزء الثالث صفحة ٤٩٢

عن دعوته ولا يصرفه عنها اختاروا لقمع الدعوة سبل أخرى منها:(١)

(١) السخرية والتحقير ، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك ، وقصدوا بذلك تخذيل المسلمين ، وتوهين قواهم المعنوية ، فرموا النبي صلى الله عليه وسلم بتهم هازلة ، وشتائم سفيهة ، فكانوا ينادونه بالمجنون قال تعالى : (وقالوا يأيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون) (٢) ويصفونه بالسحر والكذب قال تعالى (وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) (٣) وكان اذا جلس وحوله المستضعفون من اصحابه استهزأوا بهم وقالوا : هؤلاء جلساؤه تفضل الله عليهم من بيننا قال تعالى (منَّ الله عليهم من بيننا) (٤) .

(٢) تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات ، وبث الدعايات الكاذبة ، ونشر الايرادات الواهية حول هذه التعاليم ، وحول ذاته وشخصيته ، والاكثار من كل ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال في تدبر دعوته ، فكانوا يقولون عن القرآن : (اساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) (٥) ويقولون (أنما يعلمه بشر) (٦) .

(٣) معارضة القرآن بأساطير الاولين ، وتشغيل الناس بها عنه ، فقد ذكروا أن النضر بن الحارث قال مرة لقريش : يا معشر قريش! والله لقد نزل بكم أمرما أوتيتم له بحيلة بعد ، قد

---

(١) الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المباركفوري ، من منشورات رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة ، ص ٩٤ – ٩٦ (بتصرف)

(٢) الحجر ، آية ٦

(٣) ص آية ٤

(٤) الأنعام آية ٥٣

(٥) الفرقان آية ٥

(٦) النحل آية ١٠٣

وقد عرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعبد الهتهم عاما ويعبدون ربه عاما . وقالوا مرة أخرى (لو قبلت آلهتنا نعبد الهك) (١)

روي ابن اسحاق بسنده ، قال : اعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يطوف بالكعبة - الاسود بن المطلب بن اسد بن عبدالعزى والوليد بن المغيرة وأميه بن خلف والعاصي بن وائل السهمي ، - وكانوا ذوي اسنان في قومهم - فقالوا : يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فان كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وان كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم (قل يأيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا انتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين) (٢) .

الفرع الثاني : موقف قريش من الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وممارساتها ضده :

لما رأى المشتركون أن الاساليب التي اتخذوها في محاربة الدعوة لا تجدي لهم نفعا في كف الدعوة ، وأستمر الرسول صلى الله عليه وسلم رغم ذلك في اقناع الناس بدعوته وأصبح الدخول في هذا الدين الجديد يزداد شيئا فشيئا ، وكانت قريش حتى ذلك الوقت مقتصرة على اساليبها السابقة في كف الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ولم تتجاوزها الى طريق الاضطهاد والتعذيب ، ولكن المشركون لما رأوا ذلك لا يجدي اجتمعوا مرة أخرى وكونوا عداوة لرسول الله

(١) المرجع السابق ، الجزء السادس ، ص ٥٠١ - ٥٠٢

(٢) الكافرون ، جميع السورة ، انظر بن هشام الجزء الأول ص ٣٦٢

كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم : كاهن . لا والله ما هو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم : شاعر . لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم : مجنون لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه . يا معشر قريش فانظروا في شأنكم ، فانه والله لقد نزل بكم أمر عظيم . ثم ذهب النضر الى الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ، ويقول : والله ما محمد بأحسن حديثا مني ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا مني (١) .

ويروي ابن عباس (٢) أن النضر بن الحارث اشترى قينات ، فكان اذا سمع برجل تبع النبي صلى الله عليه وسلم أو مال اليه ، سلط عليه واحدة منهن تطعمه وتسقيه وتغني له حتى لا يبقى له ميل الى الاسلام وفيه نزل قوله تعالى (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) (٣) .

(٤) مساومات حاولوا بها أن يلتقي الاسلام والجاهلية في منتصف الطريق بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه ، ويترك النبي صلى الله عليه وسلم بعض ما هو عليه قال تعالى (ودوا لو تدهن فيدهنون) (٤) .

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي المطبعة السلفية بمصر ص ١١٧ - ١١٨

(٢) تفهيم القرآن ، ابو الاعلى المودودي ، نشر مكتبة الجماعة الاسلامية بالهند ، الجزء الرابع ص ٩

(٣) لقمان آية ٦

(٤) القلم آية ٩

صلى الله عليه وسلم ويرأسها أبو لهب ، وبعد التشاور والتفكير اتخذت اللجنة قرارا حاسما ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقررت الا تألوا جهدا في محاربة الاسلام ، وإيذاء رسوله ، وتعذيب اتباعه ، والتعرض لهم بالوان من النكال والقهر والا تجد سبيلا الى قمع هذه الدعوة الا اتخذته .

وبعد هذا القرار والتصميم على تنفيذه ، وهو سهل بالنسبة لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فأغلبهم من المستضعفين والعبيد ، اما رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه كان رجلا شهما وقورا ذا شخصية فذة تتعاظمه نفوس الاعداء والاصدقاء بحيث لا يقابل مثلها الا بالاجلال والتشريف ، ولا يجتريء على اقتراف الدنايا والرذائل ضده الا أراذل الناس وسفهاؤهم ، ومع ذلك كان في منعة عمة ابي ابي طالب ، وهو من رجال مكة المعدودين ومعظما في اصله ، وبين الناس ، فما يجسر أحد على اخفار ذمته وأستباحة بيضته ، ان هذا الوضع اقلق قريشا وأقامهم وأقعدهم ، ولكن الام هذا الصبر الطويل امام دعوة تتطلع الى القضاء على زعامتهم الدينية .

وبدأت الاعتداءات ضد النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى رأسهم ابو لهب ، فقد اتخذ موقفه هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الأول وقبل ان تهم قريش بذلك ، فيحنما كان النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا يحذر عشيرته وينذرها (أخذ ابو لهب حجرا ليضرب به النبي صلى الله عليه وسلم) (١) .
وكان ابو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم رقية وأم كلثوم قبل البعثة ، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة حتى طلقاهما (٢) .

---

(١) روي ذلك الترمذي في الجامع

(٢) في ظلال القرآن الجزء الثالث ص ٢٨٢

وكانت أمرأة ابي لهب ـ ام جميل أروي بنت حرب بن أمية ـ لا تقل عن زوجها في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كانت تحمل الشوك وتضعه في طريقه وعلى بابه ليلا ، وكانت أمرأة سليطة ، تبسط فيه لسانها ، وتطيل عليه الافتراء والدس ، وتؤجج نار الفتنة ، وتثير حربا شعواء على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب .

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن في قوله تعالى (تبت يدا ابي لهب وتب .. الى آخر السورة) اتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه ابو بكر الصديق رضي الله عنه وفي يدها فهر (١) من حجارة فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ترى الا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ! أين صاحبك ؟ قد بلغني انه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله اني لشاعرة ثم قالت :

مذمما عصينا ، وأمره أبينا ، ودينه قلينا .

ثم انصرفت فقال ابو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال / ما رأتني ، لقد أخذ الله ببصرها عني (٢) .

كان ابو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاره الملاصق لمنزله ، كما كان غيره من جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذونه وهو في بيته (٣) .

قال ابن اسحاق (٤) (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ،

---

(١) مقدار ملء الكف

(٢) سيرة ابن هشام ، مطبعة الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية ، الجزء الاول ص ٣٣٥ـ ٣٣٦ .

(٣) الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري ، منشورات رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة ص ٩٩

(٤) سيرة ابن اسحاق تحقيق وتعليق محمد حميد الله ص

فلما سجد ، جاءه ابو جهل فوطيء عنقه فأنزل الله تعالى (أرأيت الذي ينهي عبداً اذا صلى) (١) وقوله تعالى (كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية) (٢) ولما نزل قوله تعالى (فليدع نادية ، سندع الزبانية) (٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لئن عاد لتأخذنه الزبانية ، فأنتهى ولم يعد بعد .

وكان أميه بن خلف اذا رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه وفيه نزل قوله تعالى (ويل لكل همزه لمزه) السورة كلها، يقول ابن هام : الهُمَزه : الذي يشتم الرجل علانية ، ويكسر عينيه ويغمز بهما ، واللمزة : الذي يعيب الناس سراً ويؤذيهم)(٤)

أما أخوه أُبي بن خلف فكان صديقا لعقبة بن ابي معيط ، فجلس عقبة مرة الى النبي صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، فلما بلغ ذلك ابي بن خلف ابنه وعاتبه على فعلته ، وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل (٥) .

كانت هذه الاعتداءات بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم على ما له من الهيبة والوقار والاجلال في نفوس اعدائه قبل اصدقائه ، بالاضافة الى ما له من منعة لدى عمه ابي طالب ، وخوفهم من غضبة بني هاشم أهله وعشيرته ، وكذلك من يعطف عليه من أعمامه كالعباس وحمزة رضي الله عنهما حتى قبل دخولهما الاسلام .

---

(١) العلق آية ٩ ــ ١٠

(٢) العلق آية ١٥

(٣) العلق آية ١٧ ــ ١٨

(٤) سيرة ابن هشام ، مطبعة الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية الجزء الاول ص ٣٥٦-٣٥٧

(٥) المصدر السابق ص ٣٦٢

الفرع الثالث :موقف الكفار من المسلمين والتدابيرالمتخذة لسلامتهم وتأمين حريتهم :

لما كانت سطوة المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصرة وصبره على ايذائهم له ليس له حدود ، توجهوا الى المستضعفين من اتباعه ، فعدوا على من اسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من اصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر ، ليفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من فتن من شدة البلاء الذي يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم . وكان بلال بن رباح رضي الله عنه صادق الاسلام طاهر القلب ، فيخرجه مولاه أمية بن خلف اذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بصخرة عظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا والله لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول بلال وهو في البلاء : أحد أحد !! . وكان ورقة بن نوفل يمر به ، وهو يعذب ، ويقول أحد أحد ، فيقول : ورقة أحد احد والله يا بلال ! ثم يقبل على معذبيه من بني جمح فيقول : أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذته حنانا (١) حتى مر به ابي بكر رضي الله عنه يوما وهم يصنعون به ذلك فاشتراه ابو بكر رضي الله عنه بغلام آخر مشرك اعطاه لاميه بن خلف بدلا منه واعتقه (٢) . وهو تدبير امني قصد به ابو بكر تأمين سلامة بلال .

وكان مشركي مكة ينظرون الى أولئك المستضعفين نظرة ازدراء واحتقار ولكن عندما بدأت الدعوة تنتشر بين مختلف الفئات والطبقات ، دخلها عناصر من بيوتات قريش الاولى التي تقف بشدة في وجه هذا الدين الجديد .

وكان بين صفوف المؤمنين الرجل الشريف والانسان الضعيف ، وبينهم

---

(١) أي موضع حنان ، فأتمسح به تبركا

(٢) مختصر سيرة ابن هشام ، اعداد محمد عفيف الزعبي ، نشر دار العلم للطباعة والنشر ، جدة ص٥٥ — ٥٦

السيد المطاع والعبد المباع ، والشيخ الهرم والفتي اليافع ، والتاجر والمسكين والخادم ، والمرأة الفاضلة والأمة المغمورة .

لما رأت قريش ذلك كله غيرت طريقتها الاولى في معارضة الدعوة وكف الناس عن اتباعها الى حرب شاملة تطرقت الى كل وسائل التعذيب والحرمان والتجويع والمطاردة والقطيعة الكاملة .
واتخذت بذلك اساليبا شتى سنتطرق لها بالاضافة الى التدابير التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لمجابهتها وهي :(١)

(١) الحرب الدعائية :

اطلقت قريش على محمد صلى الله عليه وسلم منذ اعلان دعوته لقب صابئ فصار هذا اللقب يطلق على كل مسلم يتبعه .
ومن ثم لقبوه بالكاهن ، والساحر ، والمجنون ، وغير ذلك من الالقاب التي تسيء اليه والى دعوته .
فتلقى المسلمون الاوائل هذه الدعاية بصبر وتحمل شديدين ، حيث انهم يعلمون انهم على حق ، وأن نهاية الباطل قريبة ، وبذلك نبذوا تلك الدعايات وراء ظهورهم بفضل التوجيهات التي تلقاها اولئك المسلمون من قائدهم صلى الله عليه وسلم وبما اتخذه من ترتيبات تضمن عدم دخول أدنى شك في قلوب اصحابه وبالتالي الاستمرار في الجهاد ومواصلة الكفاح .

(٢) الحرب الاقتصادية :

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجروا الى الحبشة فأمنوا هناك ونشروا الاسلام ، صارت تبحث عن وسيلة للتضييق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه

(١) بتصرف عن كتاب التاريخ الاسلامي لمحمود شاكر ، الطبعة الثالثة ، الكتاب الثاني ، ص ٨٣ – ٩١

وعشيرته فاتفقت الى التعاهد على محاصرتهم اقتصاديا ، فلا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئا وكتبوا ذلك في صحيفة وعلقوها في الكعبة .

فلما جهدوا وانهكت قواهم ورآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على تلك الحالة أخذ يقوى عزائمهم على الصبر والمصابرة فأنتصر الصبر على الظلم والحرب الاقتصادية . فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فقال (يا غلام اني اعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فأسأل الله ، واذا استعنت فأستعن بالله ، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الاقلام ، وجفت الصحف) (١) .
تلك هي الكلمات التي يقوِّى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه فيبيعون الغالي والرخيص في سبيل صمودهم في وجه الاعداء .

(٣) الحرب النفسية :

لعل الحرب النفسية التي اتخذتها قريش ضد النبي صلى الله عليه وسلم وعشيرته عند حصارهم في الشعب ومقاطعتهم بالاضافة الى ما يلاقونه من سخرية وتهكم وتكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم واتهامه بالسحر والكهانة والجنون ، تعد من أقوى الحروب وأشدها فتكا بجسم الأمة المسلمة ، ولولا ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم من حثهم على الصبر والمصابرة وتقوية الروح المعنوية لديهم لربما ادت تلك الحرب الى اضعاف عقائدهم

---

(١) رواه احمد والترمذي ، وهو صحيح

وعودتهم الى دين قومهم ولكن تدبير الله سبحانه وتعالى يفوق كل شئ .

(٤) الاذى البدني :

نالت قريش كل من اسلم من رجالها ، فوثبت كل قبيلة على من كان فيها من المسلمين فجعلوا يعذبونهم ، ويفتنونهم عن دينهم ، الا من يعصمه الله وقام بعض كفار قريش بتعذيب ما لديهم من عبيد مسلمين ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يرض بذلك فأمر بالهجرة الى الحبشة ، وطلب من بعض الموسرين من اصحابه شراء العبيد المسلمين وتحريرهم من قبضة الشرك وهو تدبير أمني قصد به الرسول صلى الله عليه وسلم تأمين حياة اتباعه ومنحهم الحرية الكاملة .

المبحث الثالث

هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة

الفرع الأول : مقدمات الهجرة النبوية وأسبابها :

لم تكن الهجرة النبوية حدثاً جاء وليد الصدفة أو أمرا اعتباطيا اقتضتها الضرورة . وانما هي اجراء خطط له بشكل جعلها مضمونة النتائج ومأمونة العواقب ومحققة لكل أهدافها اعتمادا على الابعاد المرسومة لها ، ومن هنا كانت الهجرة بداية لمنطلق الدعوة الاسلامية . ومع انه لا يختلف اثنان من أن الهجرة أمر رباني ، جاءت تنفيذا لقضاء الله تعالى ، وتحت قدرته ومشيئته التي تجلت وراء نجاحها ورد كيد المشركين في محاولة احباطها .

مع ذلك كله فان هناك مقدمات وأحداث متسلسلة سبقت الهجرة وكانت من أسباب تأمين مسيرتها والقيام بتنفيذها بنجاح وتعود تلك الاحداث الى سنوات قليلة قبل الهجرة يدل عليها ما يلي :

(١) كان التفكير في الهجرة قد بدأ مبكرا عن تاريخها الفعلي . واختيار (يثرب) مقرا ومهجرا للرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته جاء متأخرا وبعد محاولات سابقة بدأت بدعوة الوافدين الى مكة الى الايمان بالاسلام ، واخفاء العبادة عن مشركي مكة ، وعدم الاحتكاك بهم علنا ، وحيث ان تلك الاعمال لم تكن خطراً كبيراً على مصالح قريش أو نفوذها لم تتعرض للمسلمين ولم يعبأ بهم اهل مكة ، الا ما كان من بعضهم تجاه مواليهم كأمية بن خلف نحو بلال بن رباح وغيره .

وحيث ان اتباع الدعوة الجديدة في تلك الفترة من المستضعفين والموالى والعبيد فلم يأبه بهم كفار مكة .

ولكن الذي اخاف أهل مكة وأثار غضبهم دخول بعضاً من سادتهم في الاسلام وهذا يهدد مصالحهم ، فقاوموا الدعوة الجديدة وكان لابد لها من مخرج لتنفذ من هذا المأزق منتصرة ، فاتجه نظر قائد الدعوة الجديدة الى خارج مكة عله يجد مكاناً انسب للدعوة وأرضاً خصبة تجد فيها صداها الواسع ، بدلا من مكة المغلقة بتعصبات الوثنيين والمشركين والقضاء على كل بادرة تدلهم على الخير والصلاح .

(٢) اتجه نظر الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الأمر الى الطائف فأتجه اليها عله يجد اذناً صاغية يبث فيها دعوة الأمن والسلام/ ولكن اهلها قابلوه بالرفض واغروا به صبيانها وغوغاء اهلها يرمونه بالحجارة حتى بلغ حدا اقصى من نفاذ الصبر الى أن خاطب ربه سبحانه وتعالى بكلماته المؤثرة وهي وان حملت معنى الالم فانها تدل على التصميم والعزم على تحمل المسئولية ومواصلة الدعوة حيث قال صلى الله عليه وسلم (اللهم اني اشكو اليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين انت رب المستضعفين وأنت ربي الى أن تكلني ان لم يكن بك على غضب فلا أبالي) (١) .

فكان الاتجاه بالدعوة الاسلامية الى الطائف هو التجربة الاولى في ايجاد موضع ملائم لها خارج حدود مكة ، وهذا يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يفكر في ترك مكة والتوجه بالدعوة الى خارجها .

(٣) حين جوبهت دعوته صلى الله عليه وسلم بين أهل الطائف بالرفض ، وأشتد أذى المشركين على المسلمين وتفننوا في تعذيبهم أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى

(١) شذرات الذهب الجزء الخامس صفحه ٢٨٦

الحبشة ـ وكان ذلك قبل الهجرة الى المدينة بسبع سنوات ـ وكان المسلمون الأوائل الذين وصلوا الى الحبشة موضع ثقة وأحترام أمبراطور الحبشة النجاشي مما اثار ثائرة قريش نحوهم لتعرض مصالحها في الحبشة للخطر فأرسلت مندوبيها ورسلها الى النجاشي ولكنه لم يأبه بهم وأعاد اليهم ما يحملونه من هدايا (١) .

(٤) كانت الخطوة الاعظم اثرا والأكثر ايجابية في اتجاه انظار الرسول صلى الله عليه وسلم الى (يثرب) قاعدة الاسلام الاولى حين اتجه وفد من يثرب مكون من قبيلتي الاوس والخزرج الى مكة على عادتهم كل سنة للحج والتجارة وقبولهم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم حينما قابلهم عند العقبة وخاطبهم بأسلوبه الرقيق ودعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام وتلى عليهم القرآن فأصغوا في انتباه وأخذوا يفكرون ، وبعد برهة قالوا (ها هو ذا والله النبي الذي تهدونا به اليهود وسوف لا نتركهم يسبقوننا اليه فأجابوا دعوته) (٢)
ومن العوامل الأخرى التي جعلت اهل (يثرب) يؤمنون بالدعوة انهم كانوا منقسمين على انفسهم وفي عراك وبغضاء دائمين تفقدهم الاستقرار والاطمئنان فحسبوا ان الايمان بالدعوة الاسلامية ستؤدي الى اصلاح ذات بينهم ولهذا قالوا يخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن صدقوا بدعوته وأجابوه الى ما أراد (انا تركنا قومنا الأوس والخزرج وبينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم وندعوهم فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك) (٣) .

---

(١) ابن هشام ،تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ،القاهرة ،مطبعة حجازي ،الجزء الثاني ص ٢٩
(٢) المصدر السابق صفحة ٩٢
(٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة الجزء الثاني ص ٩٢

ولتكون خطته صلى الله عليه وسلم واضحة وأكثر امانا واضمن نجاحا وتكون ذات معالم مدروسة من كل جانب رغم النجاح الأكيد في تأمين مكانها فانه طلب من الوفد الاجتماع معه لمناقشة جميع جوانب هذا المشروع الكبير وبعد مناقشة طويلة شملت جميع الابعاد والنتائج وما يمكن أن يؤول اليه هذا الاتفاق وكذلك الاتفاق على شروطه ومستقبله تمت المبايعة .

الفرع الثاني : نتائـــج الهجــــرة :

الهجرة كما اسلفنا ظاهرها الانتقال من مدينة الكفر والضلال الى مدينة الايمان والنصرة والفلاح ، وهي في حقيقتها تعني أيضا بدء التاريخ الاسلامي ، وكأن الاسلام لم يبدأ زمن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أو يوم ولادته ، فالهجرة النبوية هي المعجزة الكبرى في دعوة الاسلام ، فهي بحق ابتداء التاريخ الاسلامي .

فالهجرة تعني الخروج من سجن المسلمين الكبير ، وتخلصا من الاضطهاد والرعب الذي يحيط بهم من أقرب الناس الى الرسول صلى الله عليه وسلم وأشدهم عداوة له من بني هاشم - خروج من تلك البيئة الحالكة المظلمة الموبوءة بوباء العصبية والجهل والطغيان الى بيئة الامان والوئام ، قال تعالى (وأذكروا اذ انتم قليل مستضعفون في الارض ، تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات ، لعلكم تشكرون) (١) .

والهجرة انتقال من صبر التعذيب والضعف عند الاضطهاد الى التحدي وقوة الثأر ، بدءا من قائدهم الذي كان هو القدوة لهم في تحمل الاذى من قومه والصبر على ما أصابه في سبيل الله وهو القائل (ما

---

(١) الانفال ٢٦

اوذي نبي قط ، مثل ما أوذيت) (١)

ان الهجرة بدءاً لصراع الجبابرة بصبر الايمان ، وسلاح التحمل من الفئة المستضعفة في الارض وسبيلا الى صراعهم بالقوة ـ قوة الايمان والسلاح والعدد والعدة والمنعة قال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الارض) (٢) •

فاذا اراد الله شيئا وقضى أمرا فلا راد لقضائه ولو اجتمع على ذلك كل من في الارض وكان بعضهم لبعض ظهيرا •
والهجرة هي الثأر الذي سمح الله عز وجل أن يرد الى الكفار المستعلين في الارض بطرا وظلما ، قال تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، الا أن يقولوا : ربنا الله •• ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز) (٣) • فكان باب النصر مفتوحا بالهجرة ، وتباشير الخير معقودة بها فلكل هذه المعاني وهي قليل من كثير وقطرة من بحر كانت الهجرة النبوية بداية للتاريخ الاسلامي وما اعظمها من بداية ، وما أعظم تاريخ يبتدئ بجهاد وتجرد لله تعالى وبمعاني زاخرة كما كانت الهجرة النبوية •

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجة والامام احمد

(٢) البقرة ٢١٤

(٣) آل عمران ١١٠

ولم يكن هناك دافع أو داع للهجرة سوى التضحية من أجل الاسلام المتكامل القوي – رحمة بالانسانية وهداية لها – وعزة للاسلام ونشر سيادته ، فلما بلغ السيل الزبى ، وصار الطفاة يحكمون سيطرتهم على المؤمنين وأستعصى على العقيدة الاسلامية ان تشق طريقها بين أخطر من وجد على الارض وأشد عداوة لله ورسوله اذن الله سبحانه وتعالى لنبيه وصحبه بالهجرة دفاعا عن الاسلام وحتى تستطيع الدعوة ان تقف على ارجلها وتشق طريقها في هداية البشرية التائهة ، قال تعالى (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا ، حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) (١)

ان التفكير في الهجرة ، يقصد منه ضرب معاقل المشركين من الخارج بعد ان تعذر ذلك من الداخل ، حيث ان توجيه الضربات من الخارج يعطي للمحارب الحرية الكاملة في الاعداد والتحرك واختيار المكان المناسب للمعركة واتخاذ التدابير اللازمة لضمان الانتصار على الاعداء وسرية الاجراءات ، فكانت الهجرة بحق هي السبيل الوحيد للبدء في الجهاد وتوحيد البلاد والقضاء على مظاهر الظلم والفساد ونشر الدين الحق بين العباد وهداية الانسانية لما فيه خيرها وعزها في الدنيا والآخرة واستخدام القوة والحكمة لتحقيق ذلك حيث لم تجد الدعوة الهادئة والموعظة الحسنة مع الذين يقولون – قلوبنا في اكنة وفي آذاننا وقر –

---

(١) التوبة ، ٢٤

الفرع الثالث : التدابير التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لضمان أمن وسلامة

الهجرة ونجاحها :

حينما علمت قريش أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعاقد مع أهل يثرب/ وخروج اصحابه اليها عرفوا أنه لابد لاحق بهم فخافوا هروبه وأجمعوا على منعه من الخروج من مكانه .

لذلك كان لزاما عليه صلى الله عليه وسلم ان يتخذ بعض الاحتياطات الامنية التي تضمن له سلامة الخروج والوصول الى يثرب بدون عوائق أو مشاكل والحالة هذه .

فعندما اذن الله له بالهجرة الى المدينة وأخبره جبريل عليه السلام (الا يبيت على فراشه الذي كان يبيت عليه تلك الليلة) اجمع أمره وتوكل على الله وقام بالاتي :

١. لما كانت عتمة الليل اجتمع المشركون على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه ويقتلونه ، ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك فقال لعلي بن ابي طالب نم على فراشي ، وتسجى ببردي هذا الحضرمي الاخضر ، فانه لن يخلص اليك شيء تكرهه منهم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذلك اذا نام (١) وكان ذلك جزءاً من مسئولية القائد في انجاح خطته ، وذلك بالتمويه والتعمية على عدوه .

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ١١٢

وعندما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم وضع التراب على رؤوسهم ولم يشاهده منهم أحد ، فقال لهم أحد المارة وكان يشاهده وهو يخرج ويضع التراب فوقهم . ماذا تنتظرون ؟ لقد خرج اليكم محمد وما ترك منكم رجلا الا وقد وضع التراب على رأسه ، فلما تأكدوا من صدقه قالوا ومن الذي ينام في فراشه وعليه برده ، انه محمد ، فلم يبرحوا حتى أصبحوا ، فقام فاذا هو علي بن ابي طالب .

ورغم ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم بحماية ربه له الا أن هذا لم يمنعه من أن يأخذ الاحتياطات الامنية البشرية التي يستطيع القيام بها ، في الوقت الذي اعمى الله تعالى عنه الابصار اثناء خروجه ، وسلط عليها النوم حتى خرج من بين ايديهم .

٢. الخروج في النهار :

قالت عائشة رضي الله عنها : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر احد طرفي النهار ، اما بكره واما عشية ، حتى اذا كان اليوم الذي اذن فيه للرسول صلى الله عليه وسلم في الهجرة والخروج من مكة بين ظهري قومه . اتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها) (١)

فالهاجرة كما نعلم ساعة القيلولة ولا أحد يخرج فيها ، وقلما يوجد انسان في تلك الساعة خارج داره في مكة ، خصوصا وأن هجرته صلى الله عليه وسلم كانت في آخر فصل الصيف ، ومكة وحرارتها شديدة حتى في فصل الشتاء ، فكيف بالصيف ، فالخروج في ذلك الوقت اضمن ما يكون للسرية والخفاء عن العيون .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، طبعة دار احياء التراث العربي – لبنان ، محقق الجزء الثاني ص ١٢٩

٣. الخروج من أحد الفتحات الخفية في دار ابي بكر:

يقول ابن هشام في كتابه السيرة النبوية (١) (فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته) فربما أن أحد المارة قد شاهده عن طريق الصدفة وهو يدخل بيت أبي بكر ، او أن بيت ابي بكر نفسه خاضع للمراقبة من قبل قريش لعلمهم مدى صداقته له ، وهو احتمال كبير خصوصا بعد أن افلت منهم ليلة البارحة وفات عليهم قتله . واذا كانت المراقبة مباشرة أو من أحد البيوت المجاورة فستكون حتما موجهة لباب البيت من مكان مجاور بعيدا عن الانظار وذلك لرصد الداخل والخاج والخروج من مخرج سري بعيد عن المراقبة يعني المحافظة على سرية التحرك ووضع جميع الاحتمالات للخروج من المأزق .

٤. الاختفاء في أحد الأماكن المهجورة حتى يخف الطلب :

عندما افلت الرسول صلى الله عليه وسلم من المشركين وخرج من داره وبالتالي من مكة خفية ، وعندما اعلن القرشيون أن جائزة من يرده اليهم حيا أو ميتا مائة من الابل ـ وهي ثروة كبيرة في ذلك الوقت ـ هب جميع اهل مكة للبحث عنه ووضع الخطط للقبض عليه ، والجميع يعلم انه سيذهب الى يثرب لذلك كان التركيز لكل الجهود على طريق يثرب ، ووضعت نقاط التفتيش والمراقبة والرصد على ذلك الطريق للحيلولة دون وصوله صلى الله عليه وسلم الى يثرب وهذا الطريق هو هدف الرسول صلى الله عليه وسلم وفي رصده والقبض عليه انهاء للمعركة معه بشكل تام ، ولذلك كان يعلم صلى الله عليه وسلم تمام العلم ما يدبره

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٠

هؤلاء (فعمدا الى غار بثور فدخلاه) (١) ، فأتجاه الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه الى الغار فوت على الاعداء مخططاتهم وأحبطها وفوت عليهم القبض عليه وقتله .

٥. الاتجاه الى طريق يخالف الوجهة الحقيقية :

تبدو عظمة تخطيطه صلى الله عليه وسلم عندما نعرف ان غار ثور في جنوبي مكة وطريق يثرب في شمالها حيث احتمالات الرصد والمراقبة ، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن قريشا ستجد في الطلب ، والبحث عنه ، وستنفق الغالي والرخيص في سبيل القبض عليه ، وستتخذ جميع الاجراءات الكفيلة برصد الطرق والمراقبة والبحث ووضع الجوائز وتحريض الناس للقبض عليه فقد اتخذ طريقا آخر يخالف ما يتوقعه الاعداء تمام المخالفة يقول المباركفوري (٢) (ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ان قريشا ستجد في الطلب ، وأن الطريق الذي ستتجه اليه الانظار لأول وهله هو طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالا ، فقد سلك الطريق الذي يضاده تماما وهو الطريق الواقع جنوب مكة ، والمتجه نحو اليمن ، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ الى جبل يعرف بجبل ثور ، وهذا جبل شامخ ، وعر الطريق ، صعب المرتقى، ذو احجار كثيرة ، فحفيت قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم)

٦. وضع المخابرات بين الاعداء لكشف مخططاتهم وتجاوزها :

قبل الانطلاق من غار ثور الى الوجهة الحقيقية لابد من معرفة كل ما يدور بين الاعداء والتخطيط على ضوء النتائج ، ولابد من التعرف مباشرة على كل اسرار العدو ومخططاته وتوقعاته بحيث

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٠

(٢) الرحيق المختوم للمباركفوري ، ص ١٨٣

تصل أولاً بأول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه فيكون الاستمرار في تنفيذ خطة الهجرة قائما على تخطيط سليم وخبرة بالواقع لاعلى ظن وحدس وربما تخطئ وربما تصيب . كيف لا ؟ وهي بداية الجهاد الاسلامي وحرب الاعداء التي تحتاج الى تخطيط سليم وتوقع المفاجآت وايجاد الحلول لها قبل وقوعها (فقد أمر أبو بكر ابنه عبدالله بن ابي بكر أن يتسمع ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما اذا امسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر) (١)

فكلما كانت القيادة اعلم بواقع العدو ، وأدرى بأسراره ، ولها في صفوفه وبين أفراده عيون تنقل اليها كل تخطيطاته ، كلما كان ذلك انجح لها في تنفيذ خططها وأهدافها ، وأن جهل القيادة بذلك يؤدي الى كارثة وشلل لخطط القائد ، وان انقطاع الاتصال بين القيادة وأجهزة المخابرات داخل صفوف العدو يؤدي الى وقوعها في مكائد الاعداء ومضاعفات الخسائر .

٧. تأمين المواصلات والطعام من أهم التدابير :

قبل الهجرة النبوية بمدة كافية تم تأمين المواصلات وتجهيزها وجعلها على اهبة الاستعداد للتحرك في أي وقت ، فقد اشترى أبو بكر راحلتين وحبسهما في داره واعلفهما استعدادا للهجرة وهذا يعد تخطيط أمني بارع كانت فيه درجة الاستعداد والتأهب قد وصلت الى أقصى حدودها .

(وكانت اسماء بنت ابي بكر تأتيهما من الطعام اذا أمست بما يصلحهما) (٢) . فان المقام في الغار ربما يطول ولم يتقرر

---

(١) سيرة ابن هشام ، الطبعة السابقة ، الجزء الثاني ، ص ١٣٠

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، الطبعة السابقة ، الجزء الثاني ، ص ١٣٠

بعد موعد الرحيل الذي سيكون القرار الأخير فيه بعد فحص نتائج المعلومات التي ترد الى القيادة من جهاز المخابرات وهذا ربما يأخذ وقتا طويلا فيعرضهما للموت من الجوع ، وقيام أحد رجال المخابرات بحمل الطعام الى الموقع ربما يؤدي الى كشفه من قبل الاعداء ويحال دون تأدية مهمته الاساسية .
لذلك كلف ابو بكر ابنته ان تنقل الزاد لهما في الغار ، وكان بالامكان أن تنقل الزاد والاخبار معا ، ولكن قدرتها على تقدير الموقف واستيعاب الخبر وأبعاده أقل من قدرة أخيها ، لذلك كانت الاستعانة بأكفأ المصادر خطة مدروسة لضمان سلامة التخطيط .

٨. اعفاء اثر التحركات بطريقة فريدة :

(أمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحهما عليه) (١) حيث أن اقتفاء الأثر خير دليل على معرفة وملاحقة المطلوب ، وفي العرب حينذاك رجال عباقرة في اقتفاء الاثر ، ربما تستعين بهم قريش للبحث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، فكان مولاه يأتي بالغنم كل يوم فيعفي على آثار التنقلات من والى غار ثور ويزيل احتمال تواجدهما هناك ، وهو تخطيط بارع يخفي أي أثر للتحرك قلما ينتبه اليه أحد .

٩. الاستمرار في التمويه اثناء موصلة السير :

يقول المباركفوري (فيلقى الرجل ابا بكر فيقول : من هذا الرجل الذي بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل يهديني الطريق ،

---

(١) المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٣٠

وانما يعني به سبيل الخير) (١)

وحيث ان الرسول صلى الله عليه وسلم هدف قريش وهناك جائزة ضخمة لمن يعثر عليه ويحضره فقد اتبع ابو بكر هذه الطريقة الفريدة ليوحي للسائل ان مرافقه يدله الى الطريق ، وهذا يدل على القدرة والوعي والنباهة والادراك من جانب ابي بكر على خداع عدوهم والافلات من ارصاده دون استعمال الكذب الصريح الا عند الضرورة القصوى ، وبذلك استعمل التورية لايهام السامع بمعنى آخر غير الذي يقصده ، وقد قال عليه الصلاة والسلام (ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب) (٢)

١٠ الابتعاد عن الطرق المتوقع رصدها أو المعتادة :

لم يكتف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاقامة في الغار ثلاثة أيام ، وحيث ان الطلب جاد والجائزة كبيرة لمن يعثر عليه ويرده ، فسوف تتسامع العرب بأسرها بالخبر وتحاول الظفر بالجائزة ، ولتقديره للموقف ، طلب من الدليل السير بهم بعيدا عن الانظار باتجاه اليمن وبالتالي الانحراف الى المدينة عن طريق الساحل مع الابتعاد عن الطرق المأهولة والفرعية التي تؤدي اليها امعانا في السرية والاختفاء عن الانظار .

ومع ان السرية التامة كانت على الجميع حتى المسلمين انفسهم لا يعرفون عن هجرته صلى الله عليه وسلم – ما عدا من اشترك فيها – فقد تكشف جانبا من الخطة وذلك خارج عن التقدير البشري ، وأن البحث شمل المناطق المحتملة وغيرها ، وهذا يوضح

---

(١) الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المباركفوري ، ص ١٨٧ ، من رواية البخاري عن أبي بكر الصديق .

(٢) رواه بن عدي في الكامل

أهمية افلات الرسول صلى الله عليه وسلم من قريش والعواقب التي كانت تتوقعها في حالة هجرته الى مكان آخر وتكتل القوى تحت قيادته ضدهم ، كيف لا ! والجهة معلومة والموقع استراتيجي بالنسبة لهم ، فالجهة يثرب والموقع طريق قوافلهم من والى الشام فالتجارة ستكسد والطرق ستقطع ، والرحلات ستتوقف ، والاقتصاد سيحاصر .

الفصل الثاني

مفاهيم عامه حول غزوة الفتح

الفصل الثانـــــــــي

مفاهيم عامة حول غزوة الفتح

المبحث الاول :

الفرع الأول : معنى غزوة الفتح

أ) المعاني اللغوية والاصطلاحية لكلمة غزوة والمقصود بها هنا :

قال تعالى (اذا ضربوا في الارض أو كانوا غزّى) (1).

تلك هي الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي تذكر الغزو .(2) .

المعاني اللغوية :

ومعنى (غزا) العدو غزواً ، وغزوانا : أي سار الـــــــى

قتالهم وانتهابهم في ديارهم فهو غازٍ ، وغزاة .

وغزا الشيء غزوا : أي طلبه وقصده

وأغزاه : جهزه للغزو

وأغزا فلانا : أي أملهه وأخر ماله عليه من الدين

والغزاه : الغزو .

والغزوة : المرة من الغزو

والمغزى : الغزو ، وموضع الغزو

والمغزى من الكلام : مقصده

وغزا : سار الى الغزو (3) .

والغزو : يقصد به أحيانا اصل الطلب ،يقال ،ما

مغزاك من هذا الأمر ؟ أي : ما مطلبك .

ويسمي الغازي غازيا : لطلبه العدو (4).

---

(1) آل عمران 156

(2) انظر المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم

(3) المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم ، محمود شيت خطاب ، الجزء الثاني ص 544 — 545 .

(4) المصباح المنير ، ج 2 ، ص 100 / وترتيب القاموس ، الجزء 3 ، ص 391

وعلى سبيل المجاز : تقول ، غزوته بقولي كذا : أي قصدته ،

وما أغزو الا فيما أقول ٠

وما غزوي الا النصيحة : أي قصدي وارادتي (١) .

وفي غير كتب الفقه : يقال : كتاب المغازي وهو أيضا اعم ٠

جمع مغزاة : وهو مصدرا سماعيا لغزا ٠

والقياس : غزوا ، وغزوة للواحدة : كضربه ، وضرب (٢) .

وفي الحديث الشريف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة :

" لا تغزى هذه بعد اليوم الى يوم القيامة) (٣) يعني مكة ٠

المعنى الاصطلاحي :

الغزو : قصد العدو للقتال خص في عرفهم بقتال الكفار (٤) .

وفيه الغزو : انزال الوحدات النظامية المسلحة بساحة العدو، بغية احتلال منطقة الانزال ، وتوسيعها بتحطيم قوات العدو ٠ ويختلف مدى الغزو من احتلال محل سوقي صغير الى هجوم واسع النطاق على المنطقة التي يحتلها العدو (٥) .

---

(١) اساس البلاغة للزمخشري ، ص ٤٥٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٥٠ – ٤٥١

(٣) رواه الامام أحمد والترمذي وهو صحيح ، انظر السيرة النبوية لابن كثير تحقيق مصطفى عبدالواحد ، الجزء الثالث ص ٥٨٠

(٤) فتح القدير لابن الهمام الجزء الرابع ص ٢٧٧

(٥) قاموس المصطلحات العسكرية محمد فتحي أمين ص ٣٦٣

والمقصود بالغزوة هنا : المرة من الغزو .

ب) **المقصود بفتح مكة :**

المعني اللغوي :

يقصد بالفتح لغة : فتح المنغلق ، والصلح الذي كان مع المشركين بالحديبية كان مسدودا حتى فتحه الله .

قال الزهري : لم يكن فتح اعظم من صلح الحديبية (١) .

قال تعالى (انا فتحنالك فتحا مبينا) (٢) .

المعنى الاصطلاحي :

المقصود بالفتح : الظفر بالبلدة عنوة أو صلحا بحرب أو بدون حرب (٣) .

الفرع الثاني : **الخلاف حول صفة فتح مكة :**

كان فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة لعشر مضين من رمضان بسبب نقض اهلها العهد الذي بينهم وبين المسلمين المعروف بصلح الحديبية بمساعدة بني بكر بالرجال والمال والسلاح للاعتداء على خزاعة . وهذا ما لا خلاف عليه . ولكن الخلاف كان في صفة الفتح هل هو عنوة أم صلحا ومع أن الاغلبية من آراء العلماء وأهل السير انها فتحت عنوة الا أن هناك آراء تقول : بأنها فتحت صلحا ولكل من الفريقين آراء حول ذلك نوجزها فيما يلي:(٤)

---

(١) فتح القدير لابن الهمام الجزء الخامس ص ٤٤
(٢) الفتح آية ١
(٣) تفسير القرآن الكريم الجليلي للامام النسفي الجزء الخامس تفسير سورة الفتح ص ٤٨
(٤) آثار الحرب في الفقه الاسلامي ، وهبة الزحيلي ، ص ٥٨١ – ٥٩٢ .

أ) القول انها فتحت عنوة :

١- لم ينقل أحد ان النبي صلى الله عليه وسلم صالح أهل مكة ، وانما جاء أبو سفيان فأعطاه الامان لنفسه ولمن دخل داره أو اغلق عليه بابه أو دخل المسجد أو القي سلاحه ولو كان هناك عقد صلح لما خصص هؤلاء بالأمان ، ولشمل الأمان العام جميع أهل مكة كما حدث في صلح الحديبية .
ثم أن الأمان لا يسمى صلحا الا اذا التزم جميع المكيين بالكف عن القتال وهذا لم يحدث اثناء فتح مكة .
ولذلك حينما أمن الرسول صلى الله عليه وسلم الناس ، قالت الانصار : اما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته [1] . فهذا يدل على أن فتح مكة كان عنوة .

٢- قال تعالى : (اذا جاء نصر الله والفتح)[2] وقال تعالى (انا فتحنا لك فتحا مبينا) [3] المراد بالفتح في السورتين هو فتح مكة ، وهو يستعمل في القهر والقوة ، قال ابن حجر ، وأما قوله تعالى : (اذا جاء نصر الله والفتح) وقوله صلى الله عليه وسلم (لا هجرة بعد الفتح) فالمراد به فتح مكة باتفاق [4] .

---

(١) البداية والنهاية الجزء ٤ ، ص ٣٠٧
(٢) سورة النصر ، آية ١
(٣) الفتح آية ١
(٤) انظر آثار الحرب في الفقه الاسلامي ، وهبة الزحيلي ، ص ٥٨٢

٣. جاء في حديث فتح مكة عن ابي هريرة : (قد وبشت قريش أوباشا لها .. ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم بيديه احداهما على الأخرى .. احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا . قال ابو هريرة : فانطلقنا فما يشاء أحد منهم أن يقتل منهم من يشاء الا قتله . فجاء ابو سفيان فقال : (يا رسول الله ، أبيدت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم)الحديث (١) .

ففي هذا الحديث ما يشير الى أن فتح مكة كان عنوة اذ لم يرض الاوباش بالأمان فقاوموا المسلمين لذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقتال حتى جاءه ابو سفيان وقال (أبيدت خضراء قريش) ، حيث قتل خالد بن الوليد اثناء دخوله من اسفل مكة ما يزيد عن العشرين – على خلاف – ولم يحدث قتال في الجهات الأخرى ولم يكن في مكة قتال غير ذلك (٢) .

ويدل ايضا في هذا الصدد على أن فتح مكة كان عنوة استثناء الرسول صلى الله عليه وسلم عدة اشخاص من الامان الذي اعطاه لأهل مكة ، فلو كانت مكة فتحت صلحا لما احتاج الرسول صلى الله عليه وسلم الى الأمر بقتل هؤلاء النفر وان وجدوا متعلقين بأستار الكعبة ، ولكان عقد الصلح كفيلا باستثنائهم . ومن ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة : افطروا فانه يوم

---

(١) انظر شرح مسلم للنووي ، الجزء ١٢ ص ١٢٦ – ١٢٧ ، وكذلك نيل الاوطار للشوكاني الجزء ٨ ص ١٦ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ، الجزء ٤ ص ٢٩٧

قتال وهذا يدل انها فتحت عنوة .

٤- جاء في الحديث الصحيح ، فيما رواه البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ان الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمسلمين ، وانها لم تحل لأحد قبلي ، وانما احلت لي ساعة من نهار ، وانها لا تحل لأحد بعدي)(١) فقوله صلى الله عليه وسلم (انما احلت لي ..) من أوضح الدلائل على أن مكة فتحت عنوة ، فهو تصريح بانها احلت له في ذلك اليوم ، اذ أن الساعة استمرت من صبيحة يوم الفتح الى العصر ، ولو كانت مفتوحة صلحا لما كان لذلك معنى يعتد به (٢) .

٥- قال صلى الله عليه وسلم بعد دخوله مكة . فيما رواه البيهقي : (ما ترون أن فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء)(٣) فهذا يدل على دخولها عنوة اذ لو كان صلحا لما احتاج الأمر أن يمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولأمنوا بموجب شروط الصلح ، ولا يجوز له حينذاك أن يفعل بهم ما يفعل بالمغلوبين قهرا ، ويعفو عنهم كما فعل أثناء فتح مكة .

---

(١) شرح البخاري للعسقلاني ،الجزء ٦ ص ٣٨٦
(٢) نيل الأوطار للشوكاني ، الجزء ٨ ، ص ٢٤
(٣) فتح الباري لابن حجر ، الجزء ٨ ، ص ١٠

٦- عندما اجارت أم هاني رجلا يوم فتح مكة ، فأراد علي بن أبي طالب أن يقتله فمنعته منه ، وأخبرت الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك فقال (قد آجرنا من آجرت يا أم هاني)[1] فإجارة أم هاني له ومحاولة قتله من قبل علي رضي الله عنه لولا اجارة أم هاني ومنعها له وتنفيذ الرسول صلى الله عليه وسلم لاجارتها ، كل ذلك فيه دليل واضح على أن فتح مكة كان عنوة ، ولو كان صلحا لحصل الأمان لذلك الرجل به ولما احتاج لأن تجيره أم هاني .

وهناك أدلة أخرى تثبت أن فتح مكة كان عنوة كدخول المسلمين بسلاحهم كاملا وتجهزهم واخفاء خبرهم عن قريش وايقاد النيران في مر الظهران لتحطيم معنوياتهم وتوزيع الجيش اثناء الدخول الى مكة ومحاولة ابي سفيان العدول عن رأيه وتبديل موقفه من الاسلام لولا أن كشفه الرسول صلى الله عليه وسلم .

ب) القول انها فتحت صلحا :

١- يستدل البعض من العلماء في قوله تعالى (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار)[2] . أي لو قاتلكم أهل مكة ولم يصالحوكم ، وكذلك يستدلون بقوله تعالى (وهو الذي كف ايديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة)[3]

(١) رواه البخاري ومسلم ، نيل الاوطار للشوكاني ، الجزء ٨ ، ص ١٧

(٢) الفتح ٢٢

(٣) الفتح ٢٤

وقوله تعالى (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ، وآخرى لم تقدروا عليها)[1] أي لم تقدروا عليها بالقهر . وقيل التي عجلها لهم غنائم حنين ، والتي لم يقدروا عليها غنائم مكة . فهذه دلالات تشير الى أن مكة فتحت صلحا ولم يقدر عليها المسلمون .

٢. هناك أحاديث تشير الى أن الرسول صلى الله عليه وسلم صالح اهل مكة عندما كان بمر الظهران مستعدا لدخول مكة ، حيث قال : فيما رواه أحمد والبيهقي ومسلم (من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن القى سلاحه فهو آمن ، ومن اغلق بابه عليه فهو آمن)[2] . الا انه استثنى من عقد الأمان افرادا محددين أمر بقتلهم لجرائم ارتكبوها في حق الاسلام والمسلمين والرسول صلى الله عليه وسلم مما يحرمهم من حق الأمان .

٣. وكذلك لو كان فتح مكة عنوة لقسمت غنائمها من عقار ومنقول وتملكها الفاتحون ، وكذلك لتم الاستيلاء على السبايا والذراري ونحوها مما هو ملك للفاتحين حسب الشريعة الاسلامية .

الا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسلب أحدا ، ولم يقسم عقارا ولا منقولا وانما دخلها متأهبا للقتال ،خوفا من غدرهم ونقضهم للصلح الذي بينه وبين ابي سفيان زعيم قريش قبل دخولها .[3] .

---

(١) الفتح ٢٠ - ٢١

(٢) فتح الباري لابن حجر ، الجزء ٨ ، ص ٥

(٣) نهاية المحتاج الى شرح المنهاج ، شمس الدين الرملي ، الجزل ٧ ، ص ٢١٥

٤ . والخلاصة : انني أرى أن فتح مكة كان عنوة وبموجب أمان خاص لضمان عدم المواجهة ، وصيانة البيت الحرام والبلد الآمن من القتال واهدار الدماء وأنه حصل بعض القتال والمناوشات ، وكان الفضل في دخولها عنوة وبدون قتال استخدام عنصري السرية والمفاجأة ، والارهاب بالقوة لارغام قريش على الاستسلام وحقن الدماء وهو ما يسمى في الوقت الحاضر الحرب النفسية أو (حرب الاعصاب) . وهذه الحالة من الفتح تعتبر من قبيل الفتح عنوة ، اذ لولا استخدام هذه الاسلوب المحكم والتدابير الأمنية المخطط لها لما حصل الفتح العظيم . وهذا هو الراجح عند اغلب علماء السير والمؤرخون والله أعلم .

المبحث الثاني

تحليل غزوة الفتح

الفرع الأول : أهمية غزوة الفتح عند المسلمين :

كان لفتح مكة أهمية خاصة بالنسبة للمسلمين ، حيث تم من خلالها القضاء نهائيا في مكة على عبادة الأوثان والشرك ، فظهر الحق وزهق الباطل ، وأنتهت العداوة المتأصلة بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة فأخذ المسلمون حريتهم في العودة الى ديارهم ، وزيارة بيت الله الحرام وتعظيمه ، ودعوة من شاؤا للدخول في دين الله افواجا ٠

فقد كان المسلمون الذين فتحوا مكة على ثلاثة أصناف :

أ) المهاجرون الذين هاجروا من مكة مستضعفين فعادوا اليها أقوياء اشداء غير خائفين ٠ ولهذه الغزوة أهمية خاصة لهؤلاء حيث اظهرهم الله بها على اعدائهم فأصبح لهم الفضل على من اسلم يوم الفتح أو من لم يسلم حتى بعده بفترة طويلة ٠ فعاد هؤلاء المسلمون الى ديارهم غانمين فرحين مستبشرين بما انعم الله عليهم ٠

ب) الانصار :وكان لغزوة الفتح أهمية كبيرة بالنسبة لهم حيث انهم هم الذين آووا الرسول صلى الله عليه وسلم ونصروه وعزروه بعد أن طرده قومه من مكة وحاولوا قتله ٠ وبانتصارهم على قريش في غزوة فتح مكة نالوا حريتهم الكاملة في تعظيم بيت الله الحرام ، والدخول فيه متى شاؤا

وبالقضاء على قريش أصبحت السيادة والريادة لهم ولمن نصروا من المهاجرين في مكة بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ج) المسلمون من عدة قبائل أخرى ، وهم حوالي نصف تعداد جيش الفتح أو أكثر وكان لهذه الغزوة في نفوسهم أهمية خاصة حيث انهم كانوا في خشية من سلطة قريش قبل الفتح ، وكانت قريش تهدد مصالحهم المادية والدينية في مكة ان هم اسلموا وبالقضاء عليها أصبحت لهم الحرية المطلقة في الدخول الى مكة وتعظيم بيت الله الحرام وتبادل التجارة مع أهل مكة دون اي عائق . بالاضافة الى أن هذه القبائل قد اسلمت فأصبح من حق الاسلام عليها أن تجاهد في سبيله ، وجاءتها الفرصة لتقوم بدورها في استرداد مكة أحب بلاد الله الى رسوله والمهاجرين ، واستعادة بيت الله الحرام أحب الاماكن الى المسلمين كافة ، والقضاء على شوكة قريش لتصبح السيادة للاسلام .

لذلك كانت كل قبيلة تحرص على نجاح الخطة ، ففتح مكة وهو الهدف الاساسي من هذه الخطة يعتبر نصراً لها وللمسلمين كافة على قريش التي اذلتهم وحاربتهم ومن هذا تتضح أهمية فتح مكة بالنسبة لهم . كما أنه من ناحية أخرى فان اشتراك عدد كبير من القبائل جعل قريشا في موقف حرج ، فأثقل مهمتها في المواجهة

لأنها ستواجه بالعداء قبائل متعددة لذلك تخاذلت قواهـــا وتحطمت معنوياتها وافسدت عليها خططها . وباختصار نقـــول ان الله اعز الاسلام والمسلمين بفتح مكة فليس هناك أهمية فـــي نفوس المسلمين من ذلك .

الفرع الثاني : أسباب غزوة الفتح ونتائجها :

من المسلم به أن لكل شيء سببا ، سواء كان هذا السبب ظاهـــرا ومعروفا وملموسا أم كان باطنا بسبب تأثير عوامل خارجيـــة أخرى مترابطة ، ربما تكون بعيدة المدى تكونت بفعل ظواهـــر متتابعة أدت الى تجمعها فيما بعد .

فان فتح مكة كان بسبب عوامل مباشرة وأخرى غير مباشـــرة أدت في النهاية الى الفتح العظيم . كما أن لذلك الحدث نتائـــج ايجابية بالنسبة للاسلام والمسلمين وكذلك نتائج ايجابيـــة ايضا بالنسبة للمشركين .

وسوف نستعرض تلك الاسباب والنتائج بشيء من الايجاز .

آ) الاسبـــاب :

١- الاسباب غير المباشرة :

السبب الأول : حيث ان مكة تحتوي الكعبة بيت الله الحـرام ، وهي مهبط الاسرار العلوية فقد ربط الله سبحانه وتعالـــى قيام كلمته في الارض بقيام الكعبة المباركة حتى قبل خلق آدم أبي البشر عليه السلام .فكانت الكعبة معين الدعم الالـهي

للفطرة الانسانية على امتداد التاريخ البشري كله ، قال الله تعالى (ان أول بين وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين) [1] . ومن ثم كانت الكعبة هي محور الصلة بين الارض والسماء ، حيث أمر الله ملائكته ببنائها والحج اليها والطواف حولها . طوافهم حول بيته المعمور المتعامد فوقها بأعالي الملكوت ـ فكان أول ما قام به آدم بعد هبوطه من لون العبادة هو حج البيت بأمر ربه . فلما انتهى من حجه لقيته الملائكة مستبشرين ومبشرين يقولون : (بر حجك يا آدم ، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام) [2] .

ومن هنا كانت الكعبة هي الاسرار العلوية لقيام دين الله في الارض على مدى رسالات الرسل منذ آدم حتى يرث الله الارض ومن عليها .

لذلك كان من الاسباب الهامة لكى تعود السيطرة عليها للمسلمين القضاء على سلطة قريش وعبادتها للأوثان في مكة . فكان ذلك من أهم الاسباب غير المباشرة في غزوة فتح مكة .

السبب الثاني : لقد كان فتح مكة بالنسبة لرسالة السماء هو شغل الرسول صلى الله عليه وسلم الشاغل منذ أن أخرجه قومه منها ، لأنه يرى بعين البصيرة أن كمال رسالته في

---

(١) آل عمران ٩٦

(٢) مقومات النصر في بدر الكبرى وفتح مكة ، محمد فهمي عبدالوهاب ، ص ٥٣

هذا الوجود مرتبط بامتلاك دعوته لفيض الحق الاعلى الكعبة البيت الحرام ولقد قال قولته الخالدة وهو يخرج من مكه (والله انك لأحب أرض الله الي ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت) [1] .

لذلك كان فتحها هو مبعث همة وأوج غايته بعد نشر الاسلام في بلاد الله كلها . فأهل مكة أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم قهرا وظلما وعدوانا ولابد له من العودة الى دياره وبلاده طال الزمان أم قصر وهكذا كان .

السبب الثالث : كان كفار قريش في مكة قادة الجزيرة العربية ، والقوة البارزة فيها ، ففي القضاء عليهم نصراً للدعوة الاسلامية ، وبث الخشية من المسلمين في نفوس القبائل الاخرى واخضاعها لسلطان الاسلام ، مما جعل معظم القبائل تفد الى الرسول صلى الله عليه وسلم مسلمة طائعة بمجرد وصول خبر فتح مكة الى اسماعها حيث كانت أغلب القبائل العربية في شبه الجزيرة تنتظر نتيجة الصراع بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقومه لاتباع المنتصر وهكذا كان فبعد الفتح دخل الناس في دين الله افواجا .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقدر هذا الموقف جل التقدير وينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على قريش ، وأحتوائها ،حيث اتاحت هدنة الحديبية للمسلمين القضاء على اليهود ، والسيطرة على القبائل شمال المدينة وجنوبها

---

(١) رواه الامام احمد والنسائي والترمذي ، انظر السيرة النبوية لابن كثير ، الجزء الثاني ص ٢٨٥

فاصبح المسلمون قوة لا تدانيها أي قوة في بلاد العرب .
ولم يبق امامهم الا الاستيلاء على مكة ، تلك المدينة المقدسة التي انتشر فيها الاسلام ايضا ، فأنهارت معنويات قادتها ولم يبق سوى فئة قليلة تفكر في المقاومة والمجابهة . فان عظمة الفتح لم تكن بتلك المعركة الحاسمة التي استولى بها الرسول صلى الله عليه وسلم على مكة فذلك لم يكن يحول دونه سوى عقد الصلح الذي يحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على الوفاء به . فهذا من أهم الاسباب التي جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم ما أن شعر بنقض قريش لهذا الصلح حتى غزا مكة بجيش لم تشهد مثله الجزيرة العربية من السابق لا في التنظيم والعدد والعدة والترتيبات والخطط العسكرية ولا في الهدف الذي يسعى اليه .

السبب الرابع : أدى انتشار الاسلام بين قسم كبير من القبائل ومن ضمنها قريش وبقاء القسم الآخر على الشرك ، الى تفرق كلمتها ، وأستحالة جمعها على حرب المسلمين أو غيرهم فلم يبق في قريش زعيم مسيطر يستطيع توجيهها الى ما يريد حين يريد . فالمسلمون فيها لا يخضعون الا لاوامر الاسلام ، اما المشركون فيها فهم بين متطرق يدعو للحرب مهما تكن النتائج ، أو معتدل يعتبر الحرب كارثة لقريش . لذلك كان من البديهي أن يسيطر المسلمون على مكة بسهولة ودون مقاومة تذكر وهو السبب المؤجل حتى انتهى عقد صلح الحديبية ثم كان الفتح .

٢- الاسباب المباشرة :

لم يذكر المؤرخون وعلماء السير أكثر من سبب واحد مباشر لفتح مكة هو أنه لما كان صلح الحديبية بين المسلمين ومشركي قريش دخلت خزاعة في عهد المسلمين ودخل بنو بكر في عهد قريش ، وأستمر الأمن والاستقرار يسود بين قريش والمسلمين ، وكان بنو بكر يلحون على بعض رجالات قريش لمساعدتهم بالمال والرجال والسلاح لأخذ ثأرهم القديم لدى خزاعة ، ولكن القرشيون يعرفون النتائج الوخيمة لهذه المساعدة فيما لو كشفت . فلما عاد جيش المسلمين من غزوة موّتة منسحبا بسبب عدم تكافوّ قوتهم العددية مع حشود الروم الكثيفة ، ظن بعض متطرفي قريش أن المسلمين اصبحوا في حالة ضعف وضياع ولا يستطيعون مجابهة قريش . فقام عددا منهم مثل عكرمة بن ابي جهل وصفوان بن أمية وغيرهم بامداد بني بكر بالمال والسلاح ومساعدتهم مستخفين بالليل في الهجوم على خزاعة وهي آمنة مطمئنة على ماء لها يقال له (الوتير) فأخذوهم بغته وأوقعوا فيهم بعض الخسائر في الارواح والاموال ، فالتجأت خزاعة الى الحرم ، ولكن بنوبكر كانوا يطاردونها ويصرون على القضاء عليها ، حتى وصل الخزاعيون الى دار زعيمهم في مكة (بديل بن ورقاء) فالتجأوا فيها . وبذلك انتهت الهدنة بين قريش وحلفائها من جهة وبين المسلمين وحلفائهم من جهة أخرى وكان السبب في ذلك قريش وبنو بكر . فأسرع عمرو بن سالم الخزاعي وكذلك بديل بن ورقاء

الى المدينة حاملين اخبار نقض الصلح الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم (نصرت يا عمرو بن سالم) ، ثم قال لما مرت سحابة في السماء (ان هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب) (1) . ثم أمر بالجهاز وكتم الناس مخرجه وتم فتح مكة لهذا السبب دون قتال يذكر .

ب) النتائج التي أدت اليها غزوة الفتح :

كان لغزوة الفتح نتائج عظيمة ربما لم تحدث في أي غزوة من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم السابقة لها أو اللاحقة حيث تم القضاء على أكبر معقل من معاقل الشرك وتطهيره بشكل نهائي . وكذلك بنفس الوقت القضاء على العدو التقليدي للمسلمين والذي تنظر اليه جميع القبائل العربية في الجزيرة على انه قائدها ومركز السيادة والريادة فيها متى قضي عليه تمت السيطرة على جميع الاعراب التي تدين لهذا المركز بالقيادة . فكان من نتائج فتح مكة بالنسبة للمسلمين أو المشركين ما يلي :

1) النتائج بالنسبة للمسلمين :

كان من نتائج فتح مكة بالنسبة للمسلمين ، أن قريشا سبق أن ارتكبت كل أنواع الظلم والعدوان ضد المسلمين عندما كانوا في مكة ، فلم يبق هناك مجال لهم سوى ترك أموالهم وأولادهم والهجرة الى المدينة تخلصا من هذا الظلم ، فلما

(1) السيرة النبوية لابن كثير ، الجزء الثالث ، ص ٥٢٧

حاولوا العودة الى البيت الحرام بصحبة المسلمين من الانصار وغيرهم من القبائل اعترضتهم قريش ومنعتهم من الدخول الى بيت الله الحرام لتعظيمه وأداء العمرة فكان لذلك نتائج وخيمة وعواقب سيئة على قريش . حيث شكل رد المسلمين عن البيت الحرام نقطة خلاف بين قادة قريش نفسها وسخط القبائل الاخرى عليها مما قوى من معنويات المسلمين وحط من معنويات قريش بشكل لم يسبق له مثيل .

فاتجه المسلمون لفتح مكة بقلوب يملؤها الثقة بنصر الله وتوفيقه فلما تم النصر للمسلمين والسيطرة على مهبط الوحي وبيت الله الحرام اصبحت مقاليد السلطة في الجزيرة العربية بيد المسلمين ، وباتت قريش جزء لا يتجزأ منهم فكانت تابعة بدلا من أن تكون متبوعة قبل الفتح بقليل وبدخول قريش في دين الله اصبح المسلمون قوة لا تقهر تسيطر على أهم بقاع الجزيرة العربية ، فاتجهت انظارهم بعد الفتح الى تكملة المشوار والقضاء على كل مظاهر الشرك في مكة ثم الانتقال تدريجيا من جزء الى جزء في تلك الجزيرة لاحلال النور بدلا من الظلام لذلك اسلم يوم الفتح أهل مكة جميعا اذا استثنينا بعض من لم يفتح الله قلبه للايمان كصفوان بن أمية وغيره الذين اسلموا فيما بعد . فأصبح بذلك أهل مكة بين عشية وضحاها من عداد جند الله لحرب اعداء الله ورسوله . وهكذا تبرز لنا اسرار الفتح العظيم ونتائجه حيث كان فتحا للقلوب قبل أن يكون فتحا للديار .

٢) النتائج بالنسبة للمشركين :

لقد كان لفتح مكة نتائج بعيدة المدى بالنسبة للمشركين فقد تطهرت الجزيرة العربية منهم بالقضاء على أكبر معقل

من معاقلهم - حيث جاءت الوفود من القبائل العربية نابذة لعبادة الاصنام الى عبادة الخالق سبحانه وتعالى فأصبح النداء الخالد (لا اله الا الله محمد رسول الله) يعم الجزيرة العربية كلها .

ونتيجة لفتح مكة اجتمعت قريش باكملها ينتظرون ما سوف يعمل بهم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم وما سوف يقول لتحديد مصيرهم ومستقبلهم . ولكنه لم يشأ أن يحاسبهم بما يستحقون من خزي ونكال جزاء اعمالهم وأفعالهم تجاهه بل اصدر عفوه الشامل الكريم ، بشكل لم يسبق له مثيل ولم يتوقعه أحد، فكان لذلك أعظم الاثر وأحسن النتائج بالنسبة للمشركين فاتجهوا دفعة واحدة للدخول في دين الله افواجا ونبذ الشرك وتحطيم الاصنام وعبادة الله وحده لا شريك له .

تلك هي أهم النتائج بالنسبة للمشركين ابرزت لنا عظم الاسلام وسماحته ورحمته فهو رسول الخير والأمن والسلام للبشرية جمعاء .

الفصل الثالث

التدابير الامنيه في غزوة الفتح

الفصـــل الثـالـــث

تمهيد :

أ : معنى التدابير والمقصود بها هنا :

فالمعنى اللغوي هو أن :

التدابير : جمع تدبير من دبر تدبيرا ،

ودبر الامر أو الشيء : اعتنى به ونظر في عاقبته (١)

قال تعالى (ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر) (٢)

وقال تعالى (افلا يتدبرون القرآن) (٣) وقال تعالى (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة) (٤) .

ودبر الامر : أي ساسه ونظر في عاقبته

والتدبير : حسن القيام بالامر

ومُدبَّر : يقال دفاع مدبر : أي دفاع احكمت خطته وجرى تحصين مواضعه .

وهجوم مُدبَّر : أي هجوم اعدت خطته سلفا واتخذت تدابير الاسناد الناري بدقة واتقان ويقابله الهجوم الفوري (٥) وهذا هو المعني الاصطلاحي ويتبعه أيضا أنواع اخرى من التدابير هي :

١. تدابير الحرمان : وتعني العمل المتخذ لمنع أو حرمان العدو من استخدام الجو أو البحر أو الاشخاص أو المرافق أو المعدات ، وقد تضمن هذه التدابير الازالة أو التلوث أو انشاء الحواجز والموانع .

٢. تدابير الأمن المقابلة : وتعني الاجراءات المتخذة لابطال الهجوم الفعال لغير الصديق (العدو) على الأمن (٦)

---

(١) الراشد ، الجزء الاول ص ٦٥٨

(٢) يونس آية ٣ (٣) النساء آية ٨٢ (٤) الانفال آية ١٦

(٥) المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم ، الجزء الأول ص ٢٣٤ – ٢٣٥

(٦) قاموس المصطلحات العسكرية ، ص ٩٣ – ٩٤

والمقصود بالتدابير هنا حسب رأيئ هي :
الخطط والاحتياطات التي يتخذها القائد العام أو أحد معاونيه لتأمين سلامة الاجراءات التي يتخذها في سبيل النصر على الاعداء وكشف مخططاتهم والسعي لافسادها وافشالها واستثمار النتائج لصالح قيادته .

ب ـ معنى الأمن :

الامن : مصدر أَمَن وأَمِن : وهو الطمأنينة والسلم .
ورجال الأمن : هم رجال الشرطة والدرك الذين يسهرون على سلامة الناس
وأمن : تأمينا : أي جعله في أمن وسلامة (١)
قال تعالى : (أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون) (٢)
وأمن ، أمْناً وأمَاناً ، وأمَانَة ، وأَمَنا ، وإمْناً ، وأَمَنَة ، أي اطمأن .
ولم يخف . فهو بذلك آمن ، وأَمِنَ وأَمِيْن ، يقال : لك الأمان : أي قد آمنتك
وأَمِنَ البلد : أي اطمأن فيه أهله ، وأَمِنَ الشر ومنه : أي سلم .
واستأمن اليه : أي طلب حمايته واستجاره
واستأمن الحربي : أي استجار ودخل دار الاسلام مستأمنا .
واستأمن فلانا : أي طلب منه الأمان (٣)
واصطلاحا : فالامن : هو حماية الجيش من عدوه ، وكتمان اسراره ، ونياته ، والامن مبدأ من مبادئ الحرب ، ويقصد به حينذاك : توفير الحماية للجيش ، ولخطوط مواصلاته من المباغتة ، ومنع العدو من الحصول على المعلومات عنه .
ويقصد بالامن ايضا : دائرة الشرطة المسئولة عن مراقبة المشبوهين من الشعب ومن الاجانب .
وحضيرة الامن : مسئولة عن حماية القطعات العسكرية وغيرها من مباغتة العدو

---

(١) الرائد : المجلد الاول ص ٢٤٠
(٢) الاعراف آية ٩٨ ، وقد وردت هذه اللفظة في ٨٧٨ آية في القرآن الكريم مع اشتقاقها .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١

لها ومكافحة الجواسيس والمخربين (١) .

وقد ذكر محمد فتحي أمين (٢) عدة معان للأمن نذكر منها ما يلي :

١. انه الاجراءات التي يتخذها المقر لحماية نفسه من التجسس أو الترصد أو التخريب أو المباغتة .

٢. انه الحالة الناجمة من ايجاد وادامة الاجراءات الحمايوية تجاه الاعمال أو التأثيرات المعادية .

٣. انه الحالة التي تمنع الاشخاص غير المخولين من الحصول على المعلومات الرسمية بالنسبة للمواد السرية .

٤. انه حماية المواد التموينية والمنشآت التموينية من هجمات العدو ونيرانه وتخريباته .

٥. انه الجزء الوقائي من نشاط مكافحة الاستخبارات ويشمل أمن الاشخاص والمعلومات والمنشآت والمواد العائدة للدولة .

٦. إنه أحد مبادئ الحرب تدعو لتوفير درجة كافية من الأمن لتحقيق حرية العمل لشن تعرض جريء لغرض التوصل الى الغاية المنتخبة ، وهذا يتطلب الحماية الكافية للقواعد وللمصالح الحيوية الاخرى المعرضة للخطر .

ولا يعني هذا المبدأ التمسك بالحذر غير الضروري وعدم المجازفة لأن العمل الجريء أمر مهم للنجاح في الحرب . والامن الاجرائي الوقائي : هو ذلك الجزء من الامن الخاص بالاجراءات الطبيعية المعينة لحماية الاشخاص لمنع وصول غير المصرح لهم الى التجهيزات والتسهيلات والموارد والوثائق . ولحمايتهم من التجسس والتخريب والتدمير والسرقة (٣) .

والحقيقة انني أرى أن كل ما ذكره سابقا يعد اجراءات أمنية كل واحدة منها تخص جانبا معينا من الجوانب الرئيسية لتأمين سلامة الجيش المحارب وسلامة الامن التي تقف وراء هذا الجيش وتدفعه الى الامام بما تعطيه له من عوامل القوة المعنوية والمادية .

---

(١) المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم ، الجزء الاول ص ٥٦ – ٥٧

(٢) في كتابه قاموس المصطلحات العسكرية ، ص ٥٩ – ٦٠

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٠

جـ ـ أهمية الأمن وفوائده بالنسبة للدولة والمجتمع والاجهزة التي تقوم على ارساء

دعائمه :

من أهم الدعائم التي ترسي قواعد الدولة ، وتمكن لها في الارض وتجعلها مستقرة ، توطيد قواعد الأمن فيها •
فاذا كانت الدولة آمنة مستقرة ، والمجتمع الذي يعيش في اكنافها يرفل بنعمة الامن ، ساد الهدوء والاستقرار جميع انماط الحياة فيها مما يجعل قادتها قادرين على ادارة البلاد وسن الانظمة والقوانين بعيدا عن أي مؤشرات خارجية • وهذه القوانين والانظمة التي تعتمد اعتمادا كليا على مبدء الأمن سوف تشمل وسيلة الدفاع عن أمنها الخارجي • فاذا كان أمن الدولة الداخلي يسير بشكل صحيح كان لزاما ان يؤثر على صحة سير أمنها الخارجي •
والجيش هو وسيلة الدفاع عن الدولة وحارسها ضد الاعداء ، لذا لم يغفل قادة المسلمين هذا الجانب الحيوي ، فأخذوا بالتفكير في أهمية الأمن بالنسبة للجيش في جميع مراحل المعركة وحتى في أوقات السلم •

ففي مرحلة الاعداد والتنظيم اتخذت التدابير الأمنية للمحافظة على سريتها وعدم وصول جواسيس الاعداء لأهدافه ونياته وقدراته وجميع ما يمكن الاعداء الاستفادة منه في مقاومته وبقيت كل هذه الاجراءات طي الكتمان الشديد •
وبنفس الوقت الحصول على معلومات كافية عن الاعداء لتوجيه الضربات الاسلامية الى مواقع الضعف في جيشهم وكيل الهجمات الموجعة للمواقع التي تؤلمهم تحت ستار الأمن والحرص واليقظة • فنرى أن كل غزوات المسلمين وسراياهم ارتكزت خططها على مبدأ الامن لمنع العدو من التدخل والتأثير على اعمالهم • (عند الهجوم ضد حصون خيبر صاح اليهود عندمشاهدتهم جيش المسلمين ـ محمد والخميس)(1)

(1) السيرة النبوية لابن هشام جز ٢ ، ص٣٣٠

ويحاول كفار قريش جهدهم للقضاء على المسلمين في موطنهم الجديد بعد أن فشلوا في القضاء عليهم بمكة .

كذلك فالمنافقون واليهود كانوا يعملون للوقيعة بين المسلمين ويقبلون لهم ظهر المجن ، ولم يتركوا وسيلة للدس واثارة البغضاء وايقاظ الاحقاد بين المهاجرين والانصار وبين الاوس والخزرج الا تبعوها لذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو القائد المفكر يبحث عن طريقة يرهب بها هؤلاء جميعهم ويشعرهم بقوة المسلمين لكي يتركوهم احرارا في نشر دعوتهم والدفاع عن عقيدتهم ضد المعتدين(١) . فاستعان الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك ببعض الاجهزة الامنية التي كونها ومنها :

١ ـ الدوريات : (٢)

وهي مفارز واجبها جمع المعلومات عن قوة العدو وتسليحه وعن الارض وهي نوعان :

دوريات استطلاع : وهي المفارز التي تحصل على المعلومات دون قتال ، لذلك تكون قليلة العدد سريعة الحركة وتنقلاتها سرية وحذرة

دوريات قتال : وهي المفارز التي تحصل على المعلومات بالقتال لذلك تكون قوية في عددها وعدتها .

ولا يقتصر واجب الدوريات في تحصيل المعلومات عن قوة العدو وسلاحه وعن الارض أو القتال للحصول على المعلومات انما يشمل أيضا : تأمين الحماية الكاملة للجماعات وكذلك المراقبة الجيدة لتحركات الاعداء والطرق المؤدية الى اماكن تجمع المسلمين ومراقبة الجواسيس ومنع تسرب المعلومات .

---

(١) الرسول القائد ، محمود شيت خطاب ، الطبعة الثانية ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ص٥٣

(٢) المرجع السابق ، ص٥٣ (الحاشية)

وسبب تسميته بالخميس انه صلى الله عليه وسلم كان يقسم جيشه الى خمسة أقسام :
مقدمة ـ ومؤخرة ـ وقلب ـ وميمنة ـ وميسرة وذلك لتأمين الحماية الكاملة لجيشه من جميع الجهات ٠
ومن وسائل الحماية لجيش المسلمين ما قاله صلى الله عليه وسلم عند تحرك الجيش لفتح مكة (اللهم خذ العيون والاخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها) (١)

فالامن هو أهم دعائم الاستقرار في المجتمع والدولة وهو وسيلة لبقائها وقد روي سلمة بن عبيد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من اصبح منكم آمنا في سربه ، معافا في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا) (٢) فقد قرن الامن بالصحة واكثر من ذلك فانه قدمه عليها وهل هناك شيء اغلى من الصحة والعافية ؟ فاذا ساد الأمن بين افراد المجتمع ساد الأمن في الأمة والأمة هي اساس الدولة وأمنها من أمن الدولة ٠

لذلك لم يأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جهدا في توفير أسباب الامن لدولته الفتية ولجيشه المقدام فضرب بذلك مثلا أعلى للقيادة الحكيمة والرأي الصائب ٠

وكانت الاجهزة التي تقوم على الامن في ذلك الوقت تختلف عن مفهومها في العصر الحاضر وعلى سبيل المثال كان صلى الله عليه وسلم يتخذ اساليبا جديدة لفرض الامن في المدينة وما حولها ويضع الحراسة على كل موقع يكون وصول الاعداء اليه مضرا بالامة المسلمة ٠

فالمشركون من الاعراب المجاورون للمدينة يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ويحاولون انتهاز اي فرصة سانحة للايقاع بهم ٠

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، الجزء ٣ ، ص ٤٧

(٢) تحفة الاحوى بشرح جامع الترمذي الطبعة الثانية ، المكتبة السلفية بالمدينة الجزء السابع ص ١١

٢ ـ الاستخبـــارات :

كان الرسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على نيات اعدائه العدوانية عن طريق عيونه وأرصاده (رجال مخابراته) وذلك قبل وقت مبكر فيعمل من جانبه على احباط مخططاتهم وما يبيتونه للاسلام من غدر وخيانة ودسائس • لذلك لم يستطع المشركون مباغتة النبي صلى الله عليه وسلم وقواته في الزمان أو المكان أو اسلوب القتال ، بينما هو استطاع ذلك في معظم غزواته وسراياه وذلك بفضل الله ثم بفضل الحصول على المعلومات قبل وقت كاف ، فقد ابقى النبي صلى الله عليه وسلم العباس في مكة عينا له وكان يزوده بأخبار قريش ونواياها بشكل مستمر ، وكذلك كانت خزاعة في مكة وهي على شركها تمده صلى الله عليه وسلم بالمعلومات عن قريش فهو حليفها ولا ترضى بما يسيء اليه • يقول سيد قطب (كانت خزاعة عيبة نصح (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئا كان بمكة) (٢) •

٣ ـ الحراســـات :

كان النبي صلى الله عليه وسلم عندما ينزل في ارض ويحط الجيش رحاله ، يوزع بعض المسلمين على الحراسات بشكل مناوبات نهارا وليلا • وكذلك اثناء السلم في المدينة يوزعهم على الطرقات والمداخل يحرسونها ويوصلون له الاخبار فورا حتى لا يفاجئهم العدو ويأخذهم على حين غرة •

(١) أي وعاء نصح ، والمقصود ناصحون مخلصون

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، مطبعة دار الشروق ، الطبعة العاشرة ، المجلد السادس ، الجزء ٢٦ ، ص ٣٣٠٨

وعندما يترك المدينة المنورة للغزو يعين أحد اصحابه عليها فيكون مسئولا عن تأمين الحراسات والدفاع عنها اثناء خروج الجيشللقتال أو الغزو .

تلك هي بعض الاجهزة الامنية التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعين بها في تأمين مسيرته ومقر قيادته والحصول على المعلومات الضرورية لخططه في السلم والحرب .

الفصل الثالث

المبحث الأول

التدابير الوقائية

تمهيد :

بعد أن تمت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى (يثرب) وبدل الرسول عليه السلام اسمها الى (المدينة) فأصبحت المدينة قاعدة انطلاق الرسالة ومركز قيادة الامة ، وصار مجتمع المدينة الجديد نواة للمجتمع الاسلامي المنشود الذي اصبح فيما بعد حقيقة واقعية امتاز بمميزات اساسية اهمها الوحده العقائدية التي هي محور رسالة الاسلام .

وتأكيدا لهذه الوحدة فقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم فور وصوله الى مركز القيادة بالمدينة ببناء المسجد(١) ليكون مقرا للرسالة ومركزا للقيادة ، ومدرسة للتعليم ، ومعهدا للتدريب العسكري .

ثم بعد ذلك آخى بين المهاجرين والانصار تمهيدا لاجراء عملية بناء المجتمع وبذلك يقوى روح الجماعة وفق الخطة التي رسمها لأمته .

بعد ذلك أخذ وضعا مواجهاً ضد كافة المشركين واليهود والمنافقين خاصة مشركي مكة . فأصبح مجتمع المدينة مجتمعا جديدا قويا ليس له صلة بالماضي ومفاهيمه العقيمة وأمتاز بالتحرر وخصوصية العمل الجماعي ، والعمران ، والتمدن ، والتخطيط للمستقبل .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري ، الطبعة الثانية ، الجزء الثاني ، صفحة ٣٩٦

عند ذلك كان لابد من قوة لحماية هذه المرتكزات الاساسية في المجتمع الجديد مما يستوجب تكوين الجيش الاسلامي المدافع ، وبذلك فرض الجهاد فتحولت القوة القبائلية المتقاتلة الى جيش رسمي تحت قيادة موحدة وعقيدة واحدة وهدف سامي .

وعندما تكونت الامة المسلمة وجيشها المدافع فلابد لها من اتخاذ بعض التدابير الوقائية الضرورية التي تضمن سلامتها وأمنها وحريتها في اظهار القوة ، ونشر الاسلام ، والاستمرار في عملية التكوين النفسي والمادي للقضاء على اعدائها ، وتحرير اراضيها ومقدساتها واحلال السلام والامن والعدالة والمساواة ونبذ الفرقة والعداءات الجانبية والظلم والجور والفساد فاتخذت التدابير الامنية الوقائية الآتية :

الفرع الأول : العمل على تأمين قاعدة الاسلام في المدينة واستتباب الامن فيها :

كان المسلمون في بداية أمرهم وحتى غزوة (بدر) يخشون مواطني المدينة من غير المسلمين ، فلا تبلغ بهم الجرأة الى الاعتداء بالمثل على من يعتدي على أحد المسلمين ، فلما انتصروا في بدر، انقلب الموقف تماما ، فأصبح سلطانهم مهيبا في المدينة وما حولها .

ذلك لما كانت الهجرة وأذن الله للمسلمين بالقتال ، وأمرهم بالاستعداد بالقوة ورباط الخيل . فكان لابد أن يعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عدته ، وأن يجهز نفسه وأتباعه للحظة الصدام . ولم يكن لقاء المسلمين ضد قريش وحدها ، فقد كانت فعلا هي الطرف الآخر على مسرح الاحداث ، ولكن سرعان ما ظهرت أطراف أخرى ، بمجرد وصول النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه الى المدينة فأتسعت بذلك رقعة القتال هنا وهناك ، حتى أمتدت الى مشارف بلاد الشام وحددوا الجزيرة المتاخمة لها .

فواجه الرسول القائد والمسلمون معه جميع هذه الاطراف المعادية على كثرتها ، فأنتصروا عليهم ، والنصر في الحرب عادة لا يأتي مصادفة ، ولا يكون الحصول عليه سهلا ، بل يحتاج الى فكرا عسكريا راقيا يسيطر على الاحداث ، ويجعل الحركة طوع أمره (١)

فالأمر اذاً يحتاج الى ترتيبات واعداد للمعركة ، وتنظيم للقوات وتأمين للقاعدة ، ووضع خطة القاء وهي تخضع دائما لفكر القائد كلما كان ناضجا متفهما للموقف العسكري والظروف المحيطة به ، كلما استطاع اجادة التخطيط والاعداد .

والرسول صلى الله عليه وسلم حارب اطرافا متعددة ، وكان لكل طرف اسلوبه الخاص في القتال الذي تعوده وأجاده . فكانت دراسته لكل عدو على حده ، ومعرفته لاساليبه في الحرب والخديعة ، فعندما استقر الامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ادرك انه على وشك البداية في مرحلة جديدة لمواجهة جميع اطراف النزاع من اعداءه فوضع استراتيجية معينة ليواجه بها أحداث هذه المراحل ، والقوى المضادة هي التي فرضت هذه الاستراتيجية بمناوشاتها للمدينة وخطرها المحدق ما لم يتم تأمين تلك القاعدة الاسلامية (٢)

لذلك سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم لايجاد هذه القاعدة الامنية ، وهي المنطقة الحيوية التي يمكن الاعتماد عليها في كل حركة عسكرية للامداد بالرجال والعتاد ، ولتكون الملجأ الحصين الذي تلجأ اليه عند اسوأ الاحتمالات ولتنتشر منها الدعوة الى الخارج .

---

(١) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، محمد فرج ، الطبعة الثالثة ، صفحة ١٥٥ — ١٥٦

(٢) المرجع السابق ص ١٥٧

فلقد اصبحت المدينة أول قاعدة أمينة للاسلام بعد أن طهرها القائد العام للامة المسلمة وسعى لاستتباب الامن فيها متخذا التدابير الآتية :

أ) اخراج اليهود :

كان اليهود يعيشون مع المسلمين في المدينة ، ومنذ وصول النبي صلى الله عليه وسلم اليها وهم يسعون لموادعة المسلمين ريثما يتدبرون وسيلة الخلاص منهم ، ومن دينهم ، وكان واضحا انهم لا يمكن أن يسالموا هذا الدين لما عرف عنهم من وسائل المكر والخديعة .

ولكن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بما علمه ربه عنهم ، وبفضل فكره الثاقب ونظرته التي لا تخطئ ، يدرك موقفهم تماما ، ويدرك انهم ينتهزون اقرب فرصة للوثوب على المسلمين ، ولكنه عليه السلام كان يتوقع أن يكون أول لقاء مسلح له مع قريش .

لذلك كان يرى بفكره الصائب موادعة اليهود حتى ينتهي من قريش ليأمن جانبهم اثناء اشتباكه مع القرشيين ، فلا ينقلبون عليه ويطعنونه من الخلف ، فاعطاهم عهده بالموادعة والامان على أموالهم وأنفسهم وحرية عقيدتهم ، الا أن يخونوا العهد .

وبنص العقد ، اصبح اليهود في المدينة رعية واحدة ، ليس لها احكام خاصة ، أو نظم معينة ، وأصبح بنص الاتفاق ايضا عدو المسلمين عدوا لليهود ، وعليهم المناصرة والتأييد ، وبذلك يكون أمن الجميع واحدا . فمن هاجم فريقا من أهل المدينة كأنه يهاجم المدينة بأسرها . بموجبه يكون سكانها جميعا مسلمين ويهود

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٧

مكلفين بالدفاع عنها وحمايتها ولأن قريشا ربما تفكر في القيام بعمل ضد المدينة من ناحية ، ومن ناحية اخرى ليتمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من تطبيق النظام فيها . فاضطر ليوادع اليهود بصفة مؤقتة لتكون المدينة كلها يداً واحدة امام الاعداء من الخارج ، وبذلك يضمن استتباب الامن في الداخل وتطبيق النظام على جميع فئات المواطنين بموجب نصوص تلك المعاهدة التي تقضي :

١. ان للجماعة الاسلامية شخصية دينية وسياسية ، ومن حقها أن تؤمن المطيع وتعاقب المفسد .
٢. الحرية الدينية مكفولة للجميع ما لم يحصل من أحد الاطراف المتعاهدة ظلم أو خيانة .
٣. على سكان المدينة من مسلمين وغيرهم أن يتعاونوا ماديا وعسكريا وأدبيا ، وعليهم أن يتكاتفوا في رد أي اعتداء قد يوجه لمدينتهم .
٤. أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو القائد الاعلى للمدينة وله السلطة الكاملة على جميع سكانها بمختلف فئاتهم .
٥. المسلمون يكونون أمة واحدة ، واليهود أمة أخرى رغم الجوار والاتفاق على التعاون .

وبذلك سيطر الرسول صلى الله عليه وسلم على أحد اطراف النزاع داخل المدينة وما يجاورها من يهود ، وأرسى قواعد الأمن في جبهته الداخلية ليتفرغ للجبهة الخارجية .

ولكن هناك بعض المتاعب التي سيواجهها من اناس همهم المصلحة والجاه والسلطة والزعامة داخل المدينة نفسها فلن يتجه للجبهة

الخارجية ما لم يقم بتصفيتها ، والقضاء عليها نهائيـــا ،
فهمهم الفتنة والشقاق والنفاق ، وهم يشكلون جانبا من مجتمع
المدينة ، يؤيد اليهود ويناصرهم . فعمل الرسول صلى الله
عليه وسلم بعد غزوة بدر على اجلاء يهود بني النضير من سكان
المدينة عندما قتلوا رجلين من بني عامر فطلب ديتهم ،
وقالوا نعم ندفعها يا أبا القاسم . فلما كان بانتظارهم
حاولوا قتله بالقاء صخرة عليه، وبذلك أمن المدينة من مكرهم
وكذلك فعل مع يهود بني قينقاع . وسرعان ما غدر بقية اليهود
وأنضموا الى مشركي قريش في غزوة الاحزاب وبهذا اعتبر الرسول
صلى الله عليه وسلم العهد لاغيا ، والعقد باطلا ، فلا ذمة ليهود
بعد ذلك .

فلما هزم الله سبحانه وتعالى الاحزاب وحده بعدما دبت عوامل
الفرقى والخذلان ، بين قريش واليهود ، بسبب الوقيعة التي دبرها
رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم عندما أمر نعيم بن مسعود
بقوله (انما انت فينا رجل واحد ، فخذل عنا مأستطعت ، فان
الحرب خدعة) [1].

عند ذلك هاجم رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود من بني
قريضة فقد بقوا وحدهم بعد انسحاب الاحزاب ، بسبب غدرهم
المشين الذي فضح طويتهم .

فلقد كانت معنوياتهم منحطة للغاية ، وينتظرون كل لحظة
وأخرى ما يفعل بهم الرسول صلى الله عليه وسلم جزاء غدرهم .
فكان توقعهم بمحلة في نفس اليوم التالي لانسحاب قريش وحلفائها
عن محاصرة المدينة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من

(١) عيون الاثر ، ابن سيد الناس ، الطبعة الثانية ، دار الافاق الجديدة ، بيروت
المجلد الثاني ، ص ٨٩

كان سامعا مطيعا ، فلا يصلين العصر الا في بني قريضة) وذلك بناءا على أمر الله حيث جاء جبريل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم فقال جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن الا من طلب القوم ، ان الله يأمرك بالمسير الى بني قريضة ، فاني عامد اليهم ، فمزلزل بهم(1) فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جهدوا وانهارت معنوياتهم نزلوا على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم واستسلموا ، ولما كانوا حلفاء للأوس رأى أن يحكم فيهم واحدا من حلفائهم ورضت الاوس بذلك فحكم فيهم سعد بن معاذ الذي حكم فيهم أن يقتل الرجال وتسبى النساء والذراري وتكون اموالهم غنيمة للمسلمين المحاصرين وديارهم للمهاجرين دون - الانصار . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات) . ولكن حتى الان لم تكن المدينة آمنة مادام هناك قبائل من يهود مجاورين لها يتحينون الفرصة للوثوب عليها ، فان يهود خيبر وهم ممن حرض الاحزاب على غزو المدينة ، فهم لا يشكون ان الرسول صلى الله عليه وسلم سيسير اليهم متى تهيأت الفرصة المناسبة .

ولكنه عليه السلام كان لديه ما هو أهم من ذلك ، وهي قريش فلما عقد الهدنة معها في صلح الحديبية رأي أن يتفرغ لليهود ويبعدهم عن المدينة وما جاورها .

المرجع السابق ، ص ٩٤ - ٩٥

فتحرك لخيبر وقد أمن على المدينة حيث ان هناك صلح مع قريش وقد قضى على اليهود قربها وأدب الاعراب حولها ٠

فحاصرهم الرسول صلى الله عليه وسلم وبدأ يفتحها حصنا حصنا ، حتى انهارت معنويات اليهود في النهاية وأستسلموا على أن يخلوا الحصون كلها ويسلموا ما فيها الى المسلمين ، ويجلوا الى الشام ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم تسامح معهم وسمح لهم البقاء في خيبر ليعملوا أجراء في الارض مقابل جزء من المحصول ويكون للمسلمين الحق في اخراجهم متى شاؤا ٠ واتفق مع قبائل اليهود الاخرى خارج خيبر على مثل ذلك ، وبهذا أمِن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم جانب اليهود واتجه الى المنافقين ليكسر شوكتهم ويؤمن الجبهة الداخلية في المدينة من مكرهم ٠

ب) كسر شوكة المنافقين :

من التدابير الامنية التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم ليستتب الأمن في المدينة ، محاولة فضح المنافقين وكشفهم وكسر شوكتهم ، فقد كانوا يحضرون الى المسجد ، ويسمعون احاديث المسلمين ، ويسخرون منهم ، ويستهزئون بدينهم ٠

فأجتمع في المسجد يوما منهم اناس ، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون ٠ بينهم خافضي اصواتهم قد لصق بعضهم الى بعض ، فأمر بهم فأخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا) (١)

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ـ تحقيق مصطفى عبدالواحد ، دار المعرفة ، بيروت الجزء الثاني ، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠

قال تعالى (اذا جآءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله ,والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) (١)

لقد أُنزل الله سورة كاملة هي (المنافقون) ذكر فيها احوالهم ومكائدهم . والاقوال والحوادث التي وقعت منهم .

وهي تتضمن حملة عنيفة على اخلاقهم وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم ، وما في نفوسهم من بغض وكيد للمسلمين ، ومن لؤم وانطماس بصائر وقلوب ، وقد بدأت حركة النفاق بدخول الاسلام الى المدينة حتى قرب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد اثرت هذه الحركة في سيرة هذه الفترة التاريخية وفي احداثها ، وشغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرا كبيرا (٢)

يقول الاستاذ محمد عزة دروزة في كتابه (سيرة الرسول . صور مقتبسة من القرآن الكريم) ان علة ظهور تلك الحركة في المدينة واضحة ، فالنبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون الاوائل في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم ، فتتملقهم وتتزلف اليهم في الظاهر ، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء ، كما كان شأن المنافقين في المدينة .

---

(١) المنافقون ، آية ١

(٢) ظلال القرآن ، سيد قطب ، الطبعة العاشرة ، دار الشروق ، المجلد ٦ ، الجزء ٢٨ ص ٣٥٧٢

اما عندما استطاع النبي صلى الله عليه وسلم ان يكسب انصارا أقوياء من الاوس والخزرج وأصبح قائدهم الاعلى الواجب الطاعة والولاء . فلم يسع الذين ضلت تغلبهم نزعة الشرك والمكابرة والحقد ان يقوموا على مناوأة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويظهروا علنا نزعتهم وعداوتهم ، بل تظاهروا بالاسلام والقيام بأركانه والتضامن مع قبائلهم وجعلوا كيدهم ومكرهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والخداع والتمويه .

فاليهود في المدينة وما حولها قد تنكروا للرسول صلى الله عليه وسلم منذ عهد مبكر وتطيروا به ، ثم جاهروه بالكفر والعداء والمكر ، ولم يلبث ان انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى ، والتضامن في موقف المعارضة والكيد. ولم يقو المنافقين ، ولم يثبتوا ويكن منهم الاذى الشديد والاستمرار في الدس والكيد للمسلمين الا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد ، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم الا بعد أن مكن الله للنبي صلى الله عليه وسلم من اليهود وأظهره عليهم وكفاه شرهم (١) .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود وأعوانهم من المنافقين حقق بذلك هدف حيوي هام هو :

---

(١) سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن الكريم ، محمد عزة دروزة ، الجزء الثاني ص ١٧٦ - ٢١٦

١. تطهير المدينة من اليهود وعملائهم المنافقين الذين كانوا ينقلون للمشركون اخبار المسلمين وتحركاتهم ، وبذلك استطاع المسلمون التحرك بحرية فلاتنكشف حركاتهم وعوراتهم للاعداء كما كان من السابق .

٢. عندما يريد المسلمون ترك المدينة لاي غزوة فلا تحتاج الى حراسة قوية كما كان من السابق فلن تتعرض لخطر كبير بعد الآن حيث كان اليهود ومن يواليهم من المنافقين مكمن الخطر الاساسي في المدينة عندما يغزو الجيش المسلم .

ج) كسر شوكة الاعراب حول المدينة :

عندما انتهى الرسول صلى الله عليه وسلم من ترتيب شئون الجبهة الداخلية وتأمين مركز القيادة والقضاء على ما يحيط بها من فتن داخلية اتجه نظره الى الجبهة الخارجية تدريجيا ، ففي البداية لابد من إخضاع القبائل من الاعراب حول المدينة ، والتي يحالف بعضها سكان يثرب ، وكلها تعرف مداخل المدينة وعلى اتصال دائم بمن فيها ، وعلى تفاعل تام معهم ، وذلك حتى لا يكونوا اعوانا للاعداء الخارجيين ، فان أثرهم ملموس ، وان كان اقل اثرا من قريش من اعداء الجبهة الخارجية وأقل اثرا أيضا من اعداء الجبهة الداخلية من اليهود والمنافقين الذين قضى عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم وفضحهم ولم يعد لهم دور مؤثر في خداع الدعوة وكشف اسرار المسلمين سوى اتجاهات فردية تنتهي بمجرد كشف صاحبها والقضاء عليه أو فضح ما قام بن من دور .

وبنفس الوقت فان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو قائد المسلمين ومدبر أمورهم بتدبير الله كان لابد له أن يظهر قوة المسلمين حتى لا تطمع فيهم القبائل المجاورة ، وتسعى قريش في القضاء عليهم .

لذلك رأي الرسول صلى الله عليه وسلم ان يرسل السرايا الى اطراف المدينة لاثبات وجوده حسب الاصطلاحات الحديثة ، وليجعل قريش تعترف بالوضع الجديد ، فهي حتى الآن لم تعترف به ، وتحاول القضاء عليه قبل أن يستفحل .

وحيث ان هؤلاء الاعراب حول المدينة ، لا يعرفون من الحق الا ما يتفق مع مصالحهم ، ولا يسيرون الا وراءه ، ولا يبحثون عن الحقيقة بل ما تقودهم اليه اهوائهم .

وفوق ذلك فهم جهلة سذج يستطيع أقل الناس أن يغير آرائهم ، ويعدل مواقفهم ، حسب ما يريده ، وقد استفاد اليهود والمنافقون وكذلك كفار قريش من هذه الظاهرة والسذاجة ، فكانوا يحرضونهم على المسلمين لأخذ اموالهم والاغارة الى املاكهم وبيوتهم ونهبها .

فلم يكن الاعراب حول المدينة في موقف محدد ليسلك المسلمون تجاهه سلوكا معينا ، بل متذبذبين ، وهذه خطورة الجهل .

لذلك استطاع المسلمون ان يقفوا في وجه هذه العداوات كلها وأن يقضوا على جميع المتربصين بهم الدوائر من هؤلاء وأولئك(١)

---

(١) التاريخ الاسلامي ، محمود شاكر ، نشر المكتب الاسلامي ، الطبعة الثالثة ، الكتاب الثاني ، ص ١٧٠ – ١٧٧

وبالقضاء على جميع القبائل المجاورة للمدينة بالاضافة الى غطفان ومن تبعها في التحزب ضد المسلمين في غزوة الخندق وأسلام أو استسلام اغلبها ، أمَّن الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة من أي غزو خارجي محتمل عند خروجه الى قريش ، ليتفرغ لعدوه الاساسي الذي أخرجه من بلده وموطنه وقاوم دعوته ووضع العراقيل في طريقها •

وكان قتال المجاورين للمدينة من الاعراب واليهود والمنافقين في البداية تنفيذا لأمر الله تعالى حيث يقول سبحانه (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، وأعلموا أن الله مع المتقين)(١) فالأمر بقتالهم جاء وسيلة لحماية الدعوة والدعاة من العدوان •

---

(١) التوبة ، ١٢٣

الفرع الثاني : العمل على اظهار قوة المسلمين في المدينة :

كانت اخبار السرايا والغزوات وعمليات التطهير التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة وما حولها تصل الى الاعراب في المناطق النائية وتنتشر بين أكثر سكان الجزيرة العربية وتحاك حولها القصص والروايات ، فهاب الاعراب المسلمين، وعرف جميع سكان الجزيرة العربية مكانتهم ومدى ما وصلوا اليه من قوة ونظام وترتيب ، فاعترفوا بهم كقوة جديدة في المنطقة ، فأصبح كل انسان يريد أن يتعرف على هذا الدين الجديد . لعلمه انه اذا دخل فيهذا الدين ، فان هناك من يحميه وأنه اذا هاجر الى المدينة فقد بلغ مأمنه .

الا ان قريشا لاتزال على غيها وباطلها لا تعترف بالحق مهما ظهر صدقه وقوة صاحبه بسبب التعصب الاعمى والجاهلية المطبقة على العقول .

وما أن فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضبط الجبهة الداخلية وتأمينها ضد الاعداء في الداخل وما جاورها ، ظهرت قوته ، و خلص مجتمعه من كل شائبة ، فلا يمكن للاعراب في تلك الظروف الحاسمه من القيام بأي عمل حربي عدواني ضد المدينة . وكان الخطر يأتي فقط من جبهتين هما :
الجبهة الجنوبية: حيث قريش العدو الاساسي للدعوة الاسلامية والتي لاتزال قوية وبإمكانها الاعتداء على المدينة .

الجبهة الشمالية : حيث اليهود ما يعرف عنهم من تآمر وخداع ومكر، ورسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ قاعدة حيوية وتدبير أمني هام هو الا يقاتل على جبهتين ، لذلك كان عليه ان يحيد احداهما ليتخلص من الأخرى ثم يعود اليها وقد رأينا كيف قضى على يهود خيبر ومن والاهم بعد ما صالح قريش في الحديبية وبذلك كانت في الحياد اثناء فتح حصون خيبر .

ولما انتهى الرسول صلى الله عليه وسلم من خيبر لم يكن امامه سوى أن يعود الى عدوه الأول والرئيسي كفار قريش ، وهو من القوة والأمان بشكل لم يصل اليه من السابق .

وكان من عوامل اظهار قوته صلى الله عليه وسلم بعض التدابير التي أتخذها وكذلك الحركات التي قادها لاظهار هذه القوة ومنها :

أ) صلح الحديبية :

لا تعترف قريش بالمسلمين كقوة ضاربة ، رغم انتصارهم عليها في أغلب الغزوات ، وبقاء قريش في وضع حرج من تزايد قوة المسلمين وانتشار دعوتهم واستقرار اوضاعهم بالمدينة .

وحتى يضمن صلى الله عليه وسلم اعتراف قريش ولو ضمنيا بقوة المسلمين واظهاراً لقوة المسلمين من ناحية أخرى امام قريش حيث انهم جاءوها في عقر دارها ، بالاضافة الى انه نصر المسلمين واظهار لقوتهم أمام الاعراب في الجزيرة العربية ، وكذلك جس نبض قريش ومعرفة احوالها . فقد اعلن في المسلمين

انه سائر الى مكة لاداء العمرة وتعظيم بيت الله ، وانه والمسلمين ليسوا بصابئين كما تزعم قريش . ولاشعار المستضعفين في مكة من المسلمين بقرب الخلاص وبداية الفرج .

لذلك كان صلح الحديبية من عوامل قوة المسلمين وانتشار الاسلام بشكل لم يكن له مثيل من قبل فكان بحق فتحا عظيما .

وأهم بنود هذا الصلح والنتائج التي استفاد منها الاسلام والمسلمون ما يلي[1].

١. اعتبار المسلمين كطرف مساو لقريش ، وهذا أول اعتراف بالدولة الاسلامية من اشد اعدائها وأقواهم في الحجاز .
٢. اصبح المجال مفتوحا امام الرسول صلى الله عليه وسلم لمحالفة القبائل التي لم تكن تطمئن الى محالفته ، لقوة قريش ولوجود الكعبة في مكة وبذلك قوي جانب المسلمين .
٣. التفريق بين قريش وحلفائها يهود خيبر الذين كانوا لا ينفكون يحرضون القبائل على الرسول صلى الله عليه وسلم.
٤. الاستقرار الذي تم للمسلمين في المدينة والتفرغ لنشر الدعوة وتقوية الاسلام .
٥. نجاح المسلمين في الحصول على الحياد المسلح ، فالمسلمون محايدون ، والمشردين منهم مسلحين يقاتلون المشركين ويحاصرونهم .

---

(١) الحركات العسكرية للرسول الاعظم في كفتي ميزان ، الدار العربية للموسوعات العميد الركن سيف الدين سعيد آل يحيى ، المجلد الثاني ، ص ٣٧٦

٦. اشارة المسلمين للرأي العام ضد قريش لصدها لهم عن البيت الحرام مما اكسب المسلمين عطف كثير من القبائل وكثير من قريش نفسها والمنطقة المجاورة لها ، مما سهل عملية فتح مكة عليهم فيما بعد نتيجة للحرب الاعلامية التي ربح المسلمون نتائجها .

وهذه بعض اطراف الهدف البعيد للرسول صلى الله عليه وسلم التي كان ينشدها عندما اصر على بنود الصلح رغم المعارضة الشديدة لها من بعض المسلمين ، الذين لم يستطيعوا ادراكها في حينه ، فلما عادوا الى المدينة وأستقر بهم المقام هناك رأوا تباشيرها ، فلمسوا بعد نظر الرسول صلى الله عليه وسلم وقدرته الحكيمة في ادارة الامور السياسية وقت الحرب والسلم . فقوي المسلمون بنتائج هذه الهدنة المؤقتة وحصلوا على مكاسب لم تكن بحسبان احد منهم ومن قريش عدا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي نفذ أمر ربه فلم يخذله ولم يضيعه .

ب) عمرة القضاء :

من شروط صلح الحديبية ان يعود المسلمون عامهم هذا وتخلي لهم قريش مكة في العام القادم ثلاثة أيام ليؤدوا عمرتهم ويزوروا بيت الله الحرام وأشترطت عليهم قريش عدم حمل السلاح اثناءه . لذلك سار رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب الموعد وساق معه الهدي وحمل السلاك والدروع والرماة وقاد مائة

فرس وذلك تحسبا واحتياطا من غدر قريش به ولأي طـــــاري٫ ربما يحدث لهم في مكة أو اثناء الطريق حيث سار عن طريـــق الفرع فلما وصل الى مر الظهران ووصل المسلمون ، فرأتـــــه قريش ورأت السلاح والخيل ارجفوا ارجافا شديدا وخافوا أن - يكون غدر بهم ، وهذا يدل على ضعف قريش وانحطاط معنوياتها وقوة المسلمين ·

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم هدأ من روعهم وقـــــال : (اني لا أدخل عليهم بالسلاح) فترك السلاح والخيل في أحـــد الاودية القريبة من مكة وجعل عليه مائتي رجل ودخل مكـــــة بالبقية وبعد أن قضى عمرته ارسل بدلا منهم مائتين آخريـــن ليحرسوا السلاح والخيل ويؤدي بقية المسلمين عمرتهم ·

ولكن القرشيـــن خرجوا الى رؤوس الجبال وتركوا مكة ولـــــم يقدروا على رؤيته صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه وهـــم يطوفون بالبيت بكل قوتهم ونشاطهم ، وهذا يوضح لنا مدى الضعف وانحدار المعنويات لدى كفار قريش ·

فقال عبد الله بن رواحة بعض الشعر لما رأي الرسول صلى اللـــه عليه وسلم يسير والمسلمون محدقون به من جميع الجهـــــات ومتوشحون سيوفهم · · فنهاه عمر بن الخطاب رضي الله عنـــه عن قول الشعر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خل عنـه يا عمر فلهى فيهم اسرع من نضح النبل) (١)

حقا لقد كانت عمرة القضاء نصرا جديدا للمسلمين بعد صلـــح الحديبية وأثرت في نفوس بعض القرشيين لما شاهدوه من نظام

(١) السيره النبويه لابن كثير محقق الجزء الثالث صفحه ٤٣١-٤٣٦

وقوة لدى المسلمين فأعلنوا اسلامهم وخرجوا متحدين قريشا ٠

وبعمرة القضاء أظهر المسلمون قوتهم وأنهم ندا لقريش بل ندا قويا لم تستطع قريش التعرض له أو مجرد النظر اليه ٠

ج) عقد معاهدات مع بعض القبائل :

لم يكتف المسلمون بقيادة الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم بعقد هدنة مع قريش وحدها فهي ربما تغدر عاجلا أو آجلا وتحسبا للطوارئ فقد اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الاجراءات الوقائية لتأمين سلامة جيش المسلمين وحياد القبائل الاخرى في الجزيرة العربية فيما لو وقعت حرب بينه وبين قريش ، ولأجل أن يعمل على جبهة واحدة مستقبلا سعى صلى الله عليه وسلم لتحييد القبائل الاخرى أما بعقد معاهدات صلح معها أو القضاء عليها كما قضي على اليهود في خيبر بعد صلح الحديبية لخيانتهم وغدرهم ٠ فاتجه بحملاته الى شمال الجزيرة العربية حيث القبائل المقيمة هناك وقريبة من المدينة شمالا وهدفه من ذلك توطيد الأمن في المنطقة الشمالية بصورة خاصة ومنع غارات الاعراب من تلك المناطق على المدينة ، بالاضافة الى حماية الدعاة هناك من غدر القبائل ، وايجاد هيبة للمسلمين في المنطقة الشمالية من الجزيرة ٠

وكذلك اتجه الى القبائل الاخرى لمصالحتها كما فعل مع بني ضمرة فقد وادعهم على أن لا يغزوهم ولا يغزوه ، ولا يكثروا عليه ، ولا يعينوا عدوا ، وكذلك فعل مع بني

مدلج في غزوة ذي العشيرة • وصالح أغلب القبائل على ساحل البحر الاحمر مما ساعده صلى الله عليه وسلم في اعتراض قوافل قريش وفرض الحصار الاقتصادي عليها فيما بعد •

ولعل المعاهدات التي عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم مع بعض القبائل ولم تدخل في الاسلام كان وقتيا حتى يتفرغ لها بعد أن يخلص من الد أعدائه اليهود وقريش ، أو تسلم هذه القبائل وتسلم من المجابهة وهكذا كان في أغلب الاحوال •

ولقد اثرت هذه المعاهدات على معنوية كفار قريش ، وفتت في عضدهم وبنفس الوقت اشاعت روح القوة والثقة عند المسلمين، وأظهرت ما هم عليه من قدرة ووضع ثابت وتخطيط للمستقبل • مما حدا بأغلب القبائل التي لم تدخل بعد في الاسلام الى المسارعة في عقد صلح مع الدولة الجديدة في المدينة • وتعترف لها بالقوة والصدارة •

د) نشر الاسلام : في بعض القبائل داخل الجزيرة العربية ومكاتبة الملوك والامراء للدخول بالاسلام •

كانت خزاعة قد دخلت في حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم اثناء صلح الحديبية ولكن بعد الصلح بقليل دخلت الاسلام كافة • وكما هو معلوم أن خزاعة تجاور قريشا في مكة وهذا له أثر عظيم في نفوس القرشيين ، ولكن لا سبيل الى التحرش بهم ماداموا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يتعرض لهم فكأنما تعرض له حسب بنود صلح الحديبية •

وخزاعة معلوم عنها أنها لا تعلم من أمر قريش شيئا الا – نقلته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشفت بذلك عورات قريش وكانت عاملا من عوامل ضعف المشركين وقوة المسلمين . وبعد خزاعة وأثناء صلح الحديبية الذي اعطى للقبائل الحرية الكاملة في الانضمام الى الرسول صلى الله عليه وسلم أو الى قريش اتجهت أغلب القبائل في الجزيرة العربية أما عن طيب خاطر أو رغبة في الاسلام أو تحت ضغط المسلمين في البداية حتى دخل في دين الله افواجا فاتجه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك الى مكاتبة الملوك والامراء لدعوتهم الى الاسلام ، فقد وجد ان الوقت قد اصبح مناسبا لدعوتهم . سواء داخل الجزيرة ام خارجها .

فهو قد قضى على اليهود وصالح قريشا وعقد الصلح مع بعض القبائل العربية في الجزيرة العربية واسلم من أسلم من هذه القبائل ، فأستقر له الوضع الداخلي والخارجي ولم يعد امامه سوى النظر الى البعيد ، وبنفس الوقت تحين الفرصة لاخضاع هؤلاء القرشيين والقبائل الاخرى متى كانت مناسبة فلابد أن يتم ذلك ولكن الوقت لم يحن بعد .

لذلك كتب الرسائل وبعثها الى الحكام في فارس والروم والحبشة ومصر وانبحرين واليمامة وبلاد الغساسنة في حوران واليمن وعمان . فأسلم ملك البحرين وامبراطور الحبشة وملكا عمان وحاكم اليمن وأخواه ولكن ملك الروم هرقل والمقوقس حاكم مصر خافا على ملكهما ولم يسلما . وكسرى ملك الفرس مزق

كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقتل ملك حوران رسول رسول الله وهدد بغزو المدينة، وأشترط أمير اليمامة أن يجعل الأمر له من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسلم .

هـ) مناوشة حدود الروم والقبائل المجاورة لها :

أول المناوشات بين المسلمين والروم والقبائل المجاورة لبلادهم كانت في غزوة موّتة (وهي اسم موضع من تخوم الشام) كان من اهدافها تأديب القبائل المقيمة هناك لغدرها بالمسلمين ، واظهار قوة المسلمين امام الروم والقبائل المتاخمة لهم ،وكذلك استطلاع قوة وكفاءة قبائل الحدود والرومان والتعرف على طبيعة الارض هناك وطريقة اهلها في الحروب . وفوق ذلك كله اظهار قوة المسلمين امام قريش لارهابها والقضاء عليها معنويا قبل المعركة الحاسمة المنتظرة .

ولقد كانت معركة موّتة معركة استطلاعية افادت المسلمين كثيرا في معرفة خواص قوات الروم وأساليب قتالها ، فأفادوا من هذه المعلومات في قتالهم بعد ذلك للروم حيث عرفوا الشيء الكثير عن تنظيم جيوشهم وتسليحها .

بعد ذلك كانت غزوة ذات السلاسل لتأديب القبائل التي اشتركت في معركة موّتة مع الروم ضد المسلمين من قبائل لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلى وطيء وعذرة ، ولاسترداد هيبة المسلمين في المنطقة الشمالية وبالتالي في مكة امام قريش التي اعتقدت بضعفهم وصارت تهزأ بهم ولذلك رأينا كيف ان بعض رجالاتها

اعانوا بني بكر ضد خزاعة حلفاء المسلمين مما تسبب في نقض صلح الحديبية . فلما اغار المسلمون على هذه القبائل وشتتوها ، اعادوا الهيبة في نفوس تلك القبائل وصاروا يخشون المسلمين ولم يعودا لمساعدة أحد ضدهم لاحقا .

تلك المناوشات مع الروم والاستفادة القصوى منها عسكريا وأدبيا لمعرفة احوال الروم وحلفائهم وأستطلاع الاراضي الواقعة تحت سيطرتهم اعطت المسلمين خبرة جيدة في تلك المواقع ، بالاضافة الى الرعب الذي انزلته في تلك القبائل، والروم انفسهم حتى صاروا في خشية من جيوش المسلمين التي تمتاز بالمباغتة والجرأة والشجاعة كما اثر ذلك في نفسية قريش لما وصل اليه فكر المسلمين وتخطيطهم المستقبلي والبعيد المدى ، فهم سوف يسودون العالم كله .

تلك هي بعض التدابير الوقائية التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لتأمين مسيرة الدعوة وثبات الدولة وأمنها فان أمن الدعوة من أمن الدولة .

فمتى استقرت الدولة وأرسيت اركانها ، تفرغ الدعاة لنشر دين الله تعالى في الآفاق لا يخشون غدرا أو مكيدة .

وكل هذه الحركات التي سبقت فتح مكة والتدابير الامنية التي اتخذت فيها والحشود الاسلامية المتزايدة يوما بعد يوم ، كان الهدف الاساسي منها اكمال الاستعدادات للقيام بالعمل الحاسم فتح مكة ، وتوحيد الجزيرة العربية لتكون بأكملها القاعدة الأمينة لحركات المسلمين المقبلة ، لنشر الاسلام في اصقاع الارض قاطبة ، وتأسيس الامبراطورية الاسلامية الكبرى ولتكون مكة قبلة المسلمين عامة .

الفصل الثالث

المبحث الثاني

التدابير المباشرة

تمهيد :

بعد نجاح الرسول صلى الله عليه وسلم في اتخاذ التدابير الامنية الوقائية لتأمين قاعدة الاسلام في المدينة لصيانة الدعوة ضد الاعداء ، ظهر المسلمون كقوة جديدة على مستوى الاحداث ، لها سماتها ، وميزاتها ، وطرقها ، ووسائلها الجديدة في الحرب ، وأثناء السلم ، فتكونت الدولة الاسلامية الجديدة في المدينة وسعى قائدها الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم لتكوين جيشها المدافع عن مبادئها وصيانة آركانها ٠

فنظم أمور الجيش والدولة في الحرب والسلم ووضع لها المباديء والنظريات الاساسية ، التي قامت عليها أول مدرسة عسكرية في تاريخ العرب ، فأصبحت مكتملة الاركان وتحتوي على المباديء والنظريات التي قامت على اساسها الاستراتيجية العسكرية الاسلامية التي طبقها المسلمون الاوائل في معاركهم التي خاضوها لاعلاء كلمة الله وواجهوا بها اعداءا يفوقونهم في العدد والعدة ، فأنتصروا عليهم بأذن الله ٠

ان قيامهم بذلك كان على اساس التكليف القرآني بالجهاد ، واعداد القوة والمرابطة ، مما جعلهم في سنوات قليلة قوة لا تقهر قال تعالى

(واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (١) . فأتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم في غزواته كلها تدابير أمنية لم يسبق اليها في تاريخ الحروب سواء قبل بدء الغزوات والدخول في حرب الاعداء أو اثناء الحرب أو بعد نهايتها بحسب المواقف وما يتطلبه الوضع اثناء اتخاذ أي نوع من التدابير الامنية . وسوف نقوم باستعراضها فيما يتعلق بغزوة فتح مكة حسب ترتيبات وسير احداث الغزوة أي قبل التحرك للغزوة ومن ثم ما أتخذ خلال الغزوة وأخيرا ما كان بعد نهاية الغزوة والفتح .

الفرع الأول : تدابير قبل بدء الغزوة :

لقد أهتم الاسلام باعداد المقاتلين ليكونوا على درجة عالية من الكفاءة في القتال فعلمهم ودربهم على اصول مواجهة الاعداء وأهتم بهم عقليا ونفسيا وبدنيا ، فأصبحوا مضرب الامثال وقدوة لمن يريد النصر على الاعداء وكسب المعركة .

ثم اهتم بعد ذلك باعداد السلاح اللازم للمعركة ، والقيام عليه ليكون صالحا لخدمتها سواء كان سلاحا هجوميا أو دفاعيا . وسواء كان سلاحا ماديا أو معنويا ، فأرتقى الاسلام بأسباب الحرب ودوافعها ، وأعتبر أن الاعداد للمعركة قبل البدء في القتال بوقت طويل ، والحصول على معلومات وافرة ومفيدة عن قوات العدو وحجب الاسرار العسكرية الاسلامية عنه ، واجراء جميع

---

(١) الانفال ، آية ٦٠

الترتيبات والتدابير والخطط الامنية التي تكفل كسب المعركة هي عنوان الدخول فيها وليس بدء القتال كما كان سائدا في ذلك الوقت ، بل جعل مرحلة الاشتباك هي المرحلة الحاسمة في تاريخ المعركة بعد الاعداد لها ٠

ولا يمكن أبدا لأية قوات محاربة أن تخوض المعركة دون أن تتم مرحلة ما قبل المعركة فهي المرحلة التي يتم فيها الاعداد والاستعداد لها ووضع خطة اللقاء ، وهي بهذه الصورة تكون اساس المعركة وحجر الزاوية فيها ٠ وهي دائما تخضع لفكر القائد لانه هو الذي يرتب ويجهز استراتيجية المعركة وينظم اسلوبها ويعد خطتها ٠

والرسول صلى الله عليه وسلم حارب اطرافا متعددة وكان لكل طرف منها اسلوبه الخاص في القتال تعوده وأجاده ، ولهذا كان من الزم المسئوليات وأخطرها قبل مواجهة أياً من هذه الاطراف أن تتم دراسة كاملة وواعية لها ، وأن تجهز استراتيجية المواجهة على ضوء هذه الدراسة ، ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أن استقر في المدينة وضع استراتيجيته لمواجهة أحداث هذه المرحلة ٠

أ) الحرب الاقتصادية :

من التدابير الامنية التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل التحرك لفتح مكة ضد قريش ومنذ وصوله الى قاعدة الاسلام فرض الحصار الاقتصادي عليها ، فالاقتصاد يلعب دورا كبيرا في حياة الناس ، وأن محاربة قريش اقتصاديا قد جعلها تعيش في

خوف دائم تبحث عن الوسيلة التي تحافظ بها على اقتصادياتها لأن انهيار اقتصادها هو انهيار طبيعي وحتمي للحياة داخل مجتمعها ، وليس أدل على ذلك من قول صفوان بن أمية (ما ندري أين نسكن ؟ وان أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا)(١)

ولقد أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أن قريشا تعيش حياتها بالتجارة ، وأن نجاح تجارتها وسهولة انتقالها وتوفر سبل انعاشها يزيد من اموالهم ويرتفع برصيد غناهم ، ومن هنا يزيدون قوة ومنعة ، ويملكون قدرة الحشد وتوفير السلاح ، ومن خلال ما تبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أن يفرض على قريش حصارا اقتصاديا ، لينهكهم من الناحية الاقتصادية ، ويضعف بالتالي مجهودهم ومقاومتهم العسكرية .

ولهذا قطع عليهم طريق التجارة الى الشام ، وهدد القبائل التي كانت تحرس طرق القوافل القرشية اثناء رحلات الصيف ، مما الجأ قريش الى البحث عن طريق آخر يكون متنفسا لتجارتها ، فلما وجدته كان المسلمون قد وضعوا ايديهم عليه ، وأستولوا على قوافلهم السائرة في ذلك الطريق الجديد ، فقريش عندما أصبح الطريق الاعتيادي لتجارتها من مكة الى الشام غير مأمون الجانب ، وتكمن فيه الخطورة ، وبمن يسلكه من قادة قوافلها ، روح — المغامرة والمقامرة بأموال الناس ، حيث ان الامان فيه مفقود

---

(١) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، محمد فرج ص ٣٢١ .

بعد أن سيطر المسلمون عليه وعلى جميع المناطق التي تشرف على مسالكه حتى طريق الساحل الذي كان يسلكه قادة القوافل عندما يعترضها طارئ أصبح غير مأمون أيضا . فكان من الطبيعي أن تبحث قريش عن طريق آخر للتجارة ، انقاذا لما بقي من اقتصادها الذي أصبح معرضا للانهيار في أية لحظة .

فلما قال صفوان بن أمية مقالته السابقة اشار عليه الاسود ابن عبدالمطلب بقوله (تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق ، فانما هي أرض نجد وفياف ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد) ثم دله على رجل من بني بكر بن وائل يدعى فرات بن حيان ليكون دليلهم على الطريق .

وجهز القرشيون قافلة بلغت قيمة ما تحمله مائة ألف درهم ، وتحركت القافلة وكلها أمل في أن تفلت من محمد وأصحابه .

وفي اثناء تحركها كان نعيم بن مسعود في المدينة ومعه خبر هذه العير - وهو على دين قومه - فأجتمع بكنانة بن أبي الحقيق من بني النضير ومعهم سليط بن النعمان ، فشربوا ثم تحدثوا بأمر العير ، ، فخرج سليط من ساعته وأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر العير فبعث من وقته زيد بن حارثة في مائة راكب فأعترضت القافلة عند ماء يقال له (القردة) في نجد ففر اصحابها وتركوا العير وما حملت فأخذها المسلمون غنيمة وأسروا الدليل وقدموا المدينة بها [1] فأستفادوا بذلك

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢٥

قطع الطريق الجديد لتجارة قريش ، واستخدام ما غنموه من أموال القافلة في تقوية المسلمين ، وانهيار اقتصاد قريش ، فلما علمت قريش بذلك اسقط في يدها وأنهارت معنوياتها .

ورغم أن قريش حاولت جهدها لمقاومة هذا الحصار الاقتصادي الذي انهكها ماديا ، واجتماعيا ، وسياسيا ، الا أن الرسول صلى الله عليه وسلم القائد أحكم سيطرته ووضع خطته المحكمة لتضييق الخناق على قريش وحرمانها من مواردها الاقتصادية الاساسية .

وكان الهدف الاعلى من حصار الرسول صلى الله عليه وسلم لقريش :

١. جعلها امام مسلكين ، محاولة القضاء على المسلمين لتنفتح امامهم الطرق التجارية المقطوعة وبذلك يدخل الرسول القائد صلى الله عليه وسلم قريش في مواجهة حقيقية معه لانهاكها وبالتالي القضاء على روح المقاومة لديها . أو تحطيم معنوياتها ، وتضييق الخناق على اقتصادها ، فتضطر الى الاستسلام قبل أن تموت جوعا .

٢. قيام المسلمين بالتعرض لقوافل قريش في الطريق من مكة الى الشام مباشرة وفي الطريق من مكة الى الشام عبر نجد والعراق ، لم يكن بهدف الحصول على الغنائم ، لانه لو كان الامر كذلك لكانوا يعودون الى قاعدتهم فور الاستيلاء عليها ، ولكن المسلمون كانوا يهدفون الى شيء أعظم من ذلك وهو حرمان القبائل من التعرض بالمسلمين ومناوشتهم في المدينة وبالتالي السيطرة على طريق تجارة

قريش ، وليس ادل على ذلك من بقاء المسلمون اياما وشهورا في ديار اعدائهم كما فعلوا في ديار بني سليم وبني ثعلبة وبني محارب ٠

٣٠ والهدف الاساسي من الحصار الاقتصادي على قريش هو التأثير المادي والمعنوي عليها لتعيد حساباتها في مواقفها ضد المسلمين ٠

٤٠ الهدف الثانوي من الحصار الاقتصادي ، ومهاجمة قوافل تجارة قريش هو تقوية الروح المعنوية للمسلمين ، ودعم اقتصادهم ، والحصول على مصدر جيد لتأمين السلاح والعتاد ، وكل اسباب القوة لمجابهة الاعداء ٠

٥٠ رغم صلح الحديبية فان الحصار الاقتصادي من قبل المسلمين لم ينقطع ضد قريش ، فان أحد بنود هذا الصلح بين قريش والمسلمون كان وبالا على قريش ، فكل مسلم يعود الى المسلمين من مكة بدون موافقة وليه يعاد اليها ، ولكن المسلمين المشردين في مكة لم يعودوا الى المسلمين بل شكلوا جبهة أخرى تقطع طريق التجارة على قريش في ناحية (العيص)[1] على ساحل البحر الاحمر ، الطريق الرئيسي لتجارة قريش ٠

وبذلك اكمل المسلمون حلقات الحصار الاقتصادي على قريش ، فلم يعد لها منفذ الى الشام لتصريف تجارتها ، وسدت جميع الطرق في

(١) موضع من ناحية ذي المروة على ساحل البحر الاحمر بطريق قريش التي كانوا يسلكونها في تجارتهم الى الشام ٠

وجهها مما كان له الأثر المباشر في سهولة فتح مكة واستسلامها .

وهذه قمة الانتصار للرسول القائد صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام .

ب) الاستطلاع :

حيث أن معرفة أحوال العدو نصف الطريق الى هزيمته ، ومواجهة العدو المجهول أمر غير هين ربما يؤدي الى الهزيمة المنكرة ، ذلك أن المواجهة تتطلب اعدادا خاصا ، وهذا الاعداد يقوم اساسا على حجم المعلومات التي تكون تحت تصرف القائد . وكلما كان الجهد المبذول لجمع المعلومات كبيرا ومدروسا كلما كانت المعلومات التي يتم الحصول عليها ذات فائدة عظيمة وعلى ضوءها يدرس القائد الموقف العام والتفصيلي لعدوه .

لذلك كان المسلمون بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم حريصين على الاطلاع على احوال عدوهم ومعرفة قدراته ، ونواياه ، وعدد قواته وتسليحه ومواضعه وأسلوبه في القتال ، وكذلك طبيعة أراضيه وتحصيناته .

فكلما كانت المعلومات المتيسرة مفصلة ، وواضحة ، وصحيحة ، وسليمة كانت خطة القائد دقيقة وأحتمال نجاحها كبيرا ، اما اذا كانت المعلومات غير متوفرة أو انها مغلوطة وغير واضحة

فربما يؤدي ذلك الى كارثة للجيش الذي يعمل بتلك الخطة التي تعتمد على معلومات غير صحيحة .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر القادة ادراكا لاهمية المعلومات ، وحرصاً على جمعها ودراستها ، واستنتاج ما يفيده منها لصالح خطته وتدابيره الأمنية الوقائية . ومن أجل ذلك سن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم مبادئ عامة لاستطلاع أخبار الاعداء وحرمانهم من الحصول على أي معلومات عن بلاده أو جيشه أو تحركاته ونياته . (فكان يبعث باستمرار طلائع ثورية من اصحابه لاستكشاف العدو وتقصي اخباره ، ويرشح لهذه المهمات العناصر التي تتوفر فيها القدرة على أدائها على أحسن الوجوه من القوة ، ونفاذ البصيرة ، والخبرة ، وتوفر الروح الفدائية فيها بحيث يستهين افرادها بالصعاب ويعملون تحت شعار النصر أو الشهادة)(1).

وتقديرا من الرسول صلى الله عليه وسلم لاهمية جمع المعلومات عن الاعداء واستطلاع احوالهم فانه كان يسند مهماتها الى رجال متميزين بصفات خاصة ، في مقدمتها الاخلاص في البحث والصدق في النقل ، فأختار من خلال اهتمامه بالمعلومات الشخص الموثوق بسلوكه وصدقه ، لجلبها ومن هنا كانت كل المعلومات التي وصلت اليه عليه السلام صحيحة وسليمة وصادقة .

---

(1) الاسلام والحرب ، ابو لبابة حسين ، منشورات دار اللواء بالرياض ، الطبعة الاولى ، ص ٦٨

وعملية جمع المعلومات التي تسمى في الوقت الحاضر بالاستكشاف وفي زمن الرسول صلى الله عليه وسلم بالاستطلاع يقوم بها أفراد قلائل يحرصون على أداء مهمتهم دون قتال ، حسب توصياته لهم صلى الله عليه وسلم ٠

وقبل غزوه لمكة استطاع المسلمون أن يعرفوا من وفد خزاعة أمر نقض صلح الحديبية ، وأستطاعوا معرفة تردد قريش في قراراتها ، كما استطاعوا أن يعرفوا كل خبر مهم يدخل الى المدينة ويحولون دون خروج المعلومات منها في وقته المناسب ، فقد حاول ابو سفيان أن يعرف نيات المسلمين من ابنته ام حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قبل غزوة فتح مكة ، فلم يفلح ، وحاول أن يعرف ذلك من بقية المسلمين في المدينة ففشل مسعاه ، وقبل ذلك حاول أن يعرف شيئا من أحوال المسلمين من وفد خزاعة اثناء عودته من المدينة بعد ابلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر نقض الهدنة ، فأنكر الوفد ذهابه الى المدينة ، ولولا أن ابا سفيان بنفاذ بصيرته عرف ذهابهم الى المدينة من وجود نوى يثرب في روث رحالهم ٠ ولذلك بقيت قريش في عماية من أمرها ، حتى وصل جيش المسلمين ضواحي مكة ونزل كالصاعقة على قريش ٠

ومن أنواع الاستطلاع الذي كان يقوم به النبي صلى الله عليه وسلم كتدبير أمني وللحصول على المعلومات بث العيون في الداخل والخارج تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى القائل (يا أيها الذين آمنوا خذو حذركم) [1] وذلك تحريضا للمؤمنين على وجوب اليقظة

---

(١) النساء ، آية ٧١

والحذر حتى لا تنتهك حرمة اسرار المسلمين ولا يباح حماهم .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتخذ الحراسة المشدودة على معسكراته ، آخذاً بمبدأ الحذر والاحتراس من الاعداء .

وقد كان المسلمون يدركون أهمية احاطة عمليات الاستطلاع بالسرية التامة حتى لا يعرف الاعداء ما وصل الى المسلمين عنهم فيحتاطون لذلك ويقومون بتبديل الخطط أو كشف مصدر المعلومات وحرمان المسلمين من أهم عنصر من عناصر النصر على الاعداء .

ولا أدل على أهمية الاستطلاع في حرص الرسول القائد صلى الله عليه وسلم للقيام به احيانا بنفسه لتتضح الرؤيا لديه ويأتي التخطيط للمعركة سليما . وقبل فتح مكة استرسل النبي صلى الله عليه وسلم في بث عيونه بكل موضع ربما يحصل على معلومات فيه عن عدوه الاول كفار قريش .

لذا نراه يختار عيونه من أقرب المقربين اليه من عشيرته وصحابته وذلك امعانا في السرية والكتمان ، فنجده اختار عمه العباس ليكون عينا له في مكة يزوده بكل المعلومات المطلوبة عن قريش والذي كانت اعماله في مكة محصورة فيما يلي [1] :

---

(١) القتال في الاسلام ، احمد نار ، دار الوفاء للطباعة / المنصورة ، صفحة ١٣٦ ،- ١٣٧ .

١. الاشراف على المؤمنين سرا في مكة بالرعاية والتزويد المادي والمعنوي .
٢. بث الدعوة سرا في الاوساط المأمونة
٣. القيام بمهمة المراسلة والتبليغ بين المهاجرين في المدينة وذويهم في مكة ممن يحمل لهم كريم العاطفة وصدق الـولاء وكذلك بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين سرا في مكة .
٤. القيام بالمحافظة بطرق خاصة على ما يمكنه رعايته من غير حرج في أموال المهاجرين وأهليهم .
٥. جمع الاخبار الصادقة وتبليغها للنبي صلى الله عليه وسلم بدقة وصدق ، وكذلك اذاعة الاخبار الصادقة عن النبي صلى الله عليه وسلم بدقة وصدق ، وكذلك اذاعة الاخبار الصادقة عن النبي والمهاجرين والانصار في مكة ليكون لها أثر في نشر الدعوة وتطمين المؤمنين وارهاب الكفرة وتثبيتا لمن أراد أن يسلم وهو وجل وخائف .
٦. التخفيف من حدة العداوة والبغضاء التي في صدور كفار قريش ضد المسلمين تمهيدا لقبول الاسلام .

ومن الضرورة القصوى ابلاغ الجيش نتائج الاستطلاع والمعلومات المتوفرة عن الاعداء - ما لم تكن المصلحة العامة تقتضي بقائها في طي الكتمان - اما لتأثيرها على معنويات الجيش المسلم أو خوفا من كشفها من قبل المخابرات المضادة وجواسيس الاعداء .

ولكن من الافضل أن يكون أفراد الجيش الاسلامي على بينة من مقدرة اعدائهم ومقدّراتهم لتكون المجابهة على ضوء المعلومات

والاحتياطات الامنية بحسب الظروف والاوضاع التي يعيش بها الاعداء •

اما اذا حارب الرجال عدوا لا يعرفون عنه شيء ويلفه الغموض ويجهلون ما يحيط بهم ، فربما يؤثر ذلك على معنوياتهم وقدراتهم القتالية أو يصابون بالمباغتة مما يضعف كفاءتهم الى حد كبير •

فمن اسباب انتصار المسلمين في غزوة فتح مكة وغيرها من المعارك اطلاع الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته على نيات الاعداء قبل وقت مبكر من المعركة والعمل من جانبهم على احباطها •

ومما يفسر لنا أسباب عدم استطاعة المشركين واليهود وأضرابهم مفاجأة قوات النبي صلى الله عليه وسلم بالزمان والمكان ، واستطاعته ذلك في معظم غزواته أن عيونه وأرصاده داخل المدينة وخارجها تمده بالمعلومات أولا بأول عن الاعداء فيضع الخطط والتدابير الأمنية لمواجهتهم والقضاء على مكائدهم وتدبيراتهم •

(ج) السفارات والوسطاء : أولا المفاوضات الابتدائية :

كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل غزوة الفتح يحاول جاهدا قدر استطاعته التفاهم مع قريش وانهاء الوضع في مكة لصالح الاسلام ، دون تعريض جيشه وبنفس الوقت قومه وعشيرته في مكة

لاراقة الدماء والحروب .

لذلك اتخذ بعض التدابير الامنية المباشرة ومن أهمها السفارات والوسطاء لكي يتعرف على حقيقة القوم ، وعلى الجو العام الذي يحيط بأطراف النزاع في مكة والقبائل الأخرى ، وليتعرف على موقفها العام من دعوته ،ومن بعضها البعض . خصوصا وقد بلغ الموقف درجة عالية من الحرج وأصبحت الحرب وشيكة الوقوع بعد رد النبي صلى الله عليه وسلم من قبل قريش عن زيارة البيت الحرام وتعظيمه وأداء العمرة .

ولذلك اصبحت كافة الاطراف ملزمة بتقدير الموقف بحكمة وتعقل وروية وايجاد مخرج للازمة يرضي الطرفين ،فكانت الوسيلة الوحيدة للتفاهم السفراء والوسطاء[1] :

١. خرج بديل به ورقاء وهو سيد بني خزاعة في نفر من رجاله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطلع لديه الموقف ، ويعرف منه هدفه ، ويقف على خطته ، فأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم انه لم يأت محاربا وانما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته[2] . وكان يسوق معه الهدى ، ومحرما بالعمرة ليأمن الناس جانبه . وأطمأن بديل الى صدق نوايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر قريش بأمره ولكنها

---

(١) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، محمد فرج ، ص ٥١٩ ، بتصرف
(٢) عيون الاثر ، ابن سيد الناس ، المجلد الاول ، الجزء الثاني ، ص ١٥١

تمادت في غيها ولم تصدقه وردت عليه بما يكره وقالت (ان كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة ولا تتحدث بذلك عنا العرب) ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لما علم بذلك قال (فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة) (١) . وكان يقول ذلك ايضا حينما كان بعسفان وقابله بشر بن سفيان وأخذ يحذره من قريش وخروجها لمقابلته لما علمت بسيره الى مكة وأنهم يعاهدون الله الا يدخلها عليهم عنوة ابدا فلم تجد هذه السفارة شيئا لقريش سوى اضعاف معنوياتهم وخذلانهم .

٢. لذلك بعثت قريش مكرز بن حفص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطلع الامر منه فلما رآه الرسول قال لاصحابه (هذا الرجل غادر) (٢) . فلما انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه ، حدثه بمثل ما حدث به بديل بن ورقاء فعاد الى قريش وأخبرهم بذلك .

٣. ثم بعثت قريش الحليس بن علقمة سيد الاحابيش ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ان هذا من قوم

---

(١) السيرة النبوية ، ابن هشام ، الجزء الثاني ، ص ١٩٧
(٢) عيون الاثر ، ابن سيد الناس ، المجلد الاول ،الجزء الثاني ، ص ١٥٢

يتألهون ، فأبعثوا الهدي في وجهه حتى يراه ، فلما رآه ،
وسمع المسلمون يلبون عاد الى قريش وهو يقول في نفسه
(سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، أبى
الله أن يحج لخم وجذام ونهد وحمير ، ويمنع ابن عبدالمطلب
هلكت قريش ورب الكعبة) ثم قال لقريش (اني رأيت ما
لا يحل منعه ، رأيت الهدي في قلائده قد أكل أوباره ،والرجال
قد شعثوا وقملوا) فقالوا له : (انما أنت اعرابي
ولا علم لك) ، فغضب وقال لهم (يا معشر قريش ، والله
ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيصد عن
بيت الله من جاءه معظما ، والذي نفس الحليس بيده لتخلين
بين محمد وما جاء له ، أو لا نفرن بالاحابيش نفرة رجل
واحد) فقالوا له (يا حليس كل ما رأيت مكيدة من محمد
واصحابه ، فأكفف عنا حتى نأخذ لانفسنا بعض ما نرضي به).(1)
وهذا يوضح مدى تضارب الآراء لدى القرشيين وافلات زمام
الامور لديهم ، وخوفهم من الرسول صلى الله عليه وسلم .

٤. بعد ذلك رأت قريش أن تبعث عروة بن مسعود الثقفي الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فلما وصله قال له (أجمعت
أوباش الناس ، ثم جئت بهم الى بيضتك (2) لتفضها بهم)
وحذره من قريش وأن قومه سينكشفون عنه ، ولكن الرسول صلى
الله عليه وسلم لم يأبه به وأسمعه ما قال لمن سبقه ،
ورأى عروة بن مسعود ما يفعل المسلمون بقائدهم وحرصهم
على الا يمسه ضر فرجع الى قريش وقال لهم (يا معشر
قريش اني جئت كسرى في ملكه ،وقيصر في ملكه ، والنجاشي
في ملكه ،والله ما رايت ملكا في قومه قط مثل محمد
في اصحابه ، ولقد رأيت

(1) عيون الاثر الجزء الثاني صفحة ١٥٢-١٥٤
(2) الاصل والعشيرة

قوما لا يسلمونه لشئ ابدا ، فروا رأيكم ، فانه عرض عليكم رشدا ، فأقبلوا ما عرض ، فاني لكم ناصح ، مع اني اخاف الا تنصروا عليه) فقالوا له : (لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور، ولكن نرده عامنا هذا ويرجع الى قابل) فقال : (ما أركم الا ستصيبكم قارعة) (١) فكان ذلك امعانا في تحطيم الروح المعنوية لديهم وأحباط روح المقاومة .

هذا ما كان من سفارات قريش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ابلغهم بصدق واخلاص وجهة نظره ، ولكن كانت تسيطر على القرشيين نزعة الريبة والشك ، وأنه سيدخل مكة عنوه ، وما ذلك الا مكيدة بهم ولذلك اسقط في ايدي قريش ، لما ادركوا من كلام عروة بن مسعود أنه لا قبل لهم بمحمد واصحابه ، وكذلك فقدوا معاونة الاحابيش وهي القوة الضاربة في جيش قريش بعد أن اقتنع سيدهم بسلامة موقف المسلمين وظلم قريش.

لذلك كان الموقف برمته في صالح الرسول صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فقد رأي حقنا للدماء أن يخطو بنفسه خطوة نحو السلام ويبذل محاولاته الأخيرة مع القوم لعلهم يقتنعون أو يهتدون فأبتدأ يرسل السفارات من جانبه :

١. فبعث في البداية فراش بن أمية الخزاعي ، الى قريش ، لينقل اليهم وجهة نظره ، ولكنهم لم يقبلوا منه قولا ، وعقروا بعيره ، وأرادوا قتله ، الا أن الاحابيش اعترضوا عليهم ومنعوهم منه وخلو سبيله ، فاحتمل رسول الله منهم هذه الهفوة .

٢. بعد ذلك أرسل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، فخرج برسالته الى قريش ، فلقيه في الطريق الى مكة

---

(١) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، محمد فرج ، ص٥٢١

ابان بن سعيد فأجاره حتى يفرغ من تبليغ رسالته ،
فأخبرهم انهم جاؤا للعمرة وتعظيم بيت الله ، ولكنْ قريش
قالت له (يا عثمان ان شئت ان تطوف بالبيت فأفعل)
فرفض عثمان بن عفان ذلك وقال : (ما كنت لافعل حتى يطوف
رسول الله صلى الله عليه وسلم) فأجابت قريش (بأنها
اقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة) •

ولما طالت غيبة عثمان حيث احتبسه كفار قريش وترامى الى
المسلمين انه قتل غيله وغدرا ، وحينما بلغت هذه الشائعة
مسامع النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا نبرح حتى نناجز
القوم)(١) ودعا الناس الى مبايعته فبايعوه على الموت ، فلما
انتهى المسلمون من البيعة ، وبايع الرسول صلى الله عليه وسلم
عن عثمان وصل عثمان عائدا من قريش وأبلغهم ان قريشا لم
تبق عندها ريبة من صدق نواياهم ولكنها ترفض دخولهم هذا
العام لئلا تتحدث العرب بأنهم هزموا امام تهديد المسلمين •

وبذلك وصلت المفاوضات الى طريق مسدود بسبب تعنت قريش ،
ومعارضتها ، وتهديدها بمنع الرسول بالقوة ان هو أقدم على
هذه الخطوة ، وتجاوزت حدود اللياقة ، والعرف السائد باحترام
السفراء وعدم التعرض لهم ، ومحاولتها التطواف بمواقع المسلمين
لاصابتهم ، وعفو الرسول صلى الله عليه وسلم عنهم بعد أن تم
القبض على جميع افراد القوة المهاجمة ما عدا قائدها ، ليتقدم
خطوة نحو الامام ولكن قريش رأت ان ذلك جبنا وخوفا منهم
فتمادت في غيبها وتحديها •
فلم يبق بعد ذلك أمام قيادة المسلمين من سبيل سوى ان تقابل
القوة بالقوة وهكذا كانت بيعة الرضوان •

---

(١) العبقريه العسكريه محمود شيت خطاب صفحه ٥٢٣

ثانيا : المفاوضات النهائية :

لما بلغ أمر البيعة قريشا ، رأت أن تعيد تقدير موقفها ، وبدأت تفكر في الأمر على هدي وبصيره ، وكان واضحا انهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة في الاشهر الحرم ، ولكنهم رأوا أن دخول المسلمين مكة أمر يسيء اليهم ويسقط هيبتهم امام العرب جميعا .

لهذا فقد أوضحوا لعثمان بن عفان انهم لن يسمحوا المسلمين بدخول مكة عامهم هذا ، فعاد عثمان بوجهة نظرهم لطرحها امام قائده وصحابته فظهرت في الافق فكرة معاهدة بين الطرفين ، فأتصل بينهم الحديث وبدأت المفاوضات التي تولاها نيابة عن قريش سهيل بن عمرو .

جاء سهيل بن عمرو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قالت له قريش (ائت محمدا فصالحه ، ولا يكن في صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لاتتحدث العرب عنا انه دخلها علينا عنوة .

فاستقبل قائد المسلمين وفد قريش وأستبشر بقدومه وهو أرغب ما يكون في موادعة القوم وبدأت المفاوضات .

فدار نقاش طويل تهددت فيه المحادثات بالتوقف لتشدد وفد قريش ، وضاق بعض المسلمون بوفد قريش ذرعا ، ولولا ثقتهم في قائدهم لما أرتضوا ما تم التوصل اليه ، ولدخلوا مكة عنوة .

ولما لاحظ الرسول صلى الله عليه وسلم مفيضا من سير المفاوضات قال له (انا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعني)[1]

ومما اثار حفيظة المسلمين وسخطهم ، احتمال النبي صلى الله عليه وسلم لشروط الصلح التي كانوا يعتقدون انها لصالح قريش ، وضد المسلمين ، بالاضافة الى الاسلوب الذي كتب فيه الصلح ولم يذكر فيه بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا محمد رسول الله ، بسبب رفض قائد وفد قريش ذلك بالاضافة الى رفضه أن يكتبه أوس ابن خولة ، فلما انتهت كتابة الصلح كان يشتمل على عدة بنود أهمها :

١. وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض .

٢. من اتى محمدا من قريش ممن على دينه بغير اذن وليه رد اليه وهذا الشرط اتضح فيما بعد انه وبالا على قريش حيث تكونت ممن فر من مكة ولم يقبله المسلمون جبهة جديدة ، فكان الحياد المسلح من المسلمين ضد قريش رغم الصلح .

٣. من أتى قريشا ممن كان مع محمد لا ترده اليه وهذا الشرط واضح المعنى وانه في صالح المسلمين فالذي يرتد عن دينه ليس فيه خير للمسلمين وليسوا بحاجته .

٤. ليس بين الطرفين عيبة مكفوفة (٢) ، وانه لا اسلال ولا اغلال (٣)

---

(١) السيره النبويه لابن كثير محقق الجزء الثالث صفحه ٣٢٠
(٢) اي صدور منطوية على ما فيها ، لا تبدي عداوة ، نقية من الغل والخداع
(٣) الاسلال = السرقة ، والاغلال = الخيانة

٥. من أحب أن يدخل في عهد محمد دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه ، وهذا البند في صالح المسلمين فأتصلوا بالقبائل وعرضوا عليهم الاسلام ، دون مقاومة .

٦. يرجع المسلمون عامهم هذا الى المدينة ، ويعودوا في عامهم المقبل ويبقون في مكة ثلاثة أيام ، على أن تغادرها قريش خلالها .

وبهذا الصلح الذي اعتقد المسلمون بادئ الامر أن شروطه كلها ضد كرامتهم ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخطط للمستقبل البعيد فذكر لهم أن ذلك هو أعظم الفتوح ، وفصل لهم النتائج التي سيجنيها المسلمون من هذه الهدنة ، فلما اتضحت لهم الحقيقة جلية قالوا : (والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا) (١)

وأهم النتائج التي كسبها المسلمون من هذه الهدنة :

١. اعتراف قريش بالمسلمين طرفا مساويا لها ، وهذا لم يحصل قبل هذه الهدنة .
٢. فتح المجال امام المسلمين لتطهير البلاد من بقية اطراف العداء وخصوصا اليهود .
٣. كانت القبائل لا تجرؤ على عقد محالفات مع المسلمين خوفا من قريش فلما عقدت قريش الصلح اطمأنت اليه فعاهدها .
٤. سنحت الفرصة المسلمين لنشر دعوتهم بأمان .

---

(١) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، محمد فرج ، ص ٥٣٢

٥. ضمن المسلمون زيارة البيت الحرام بعد سنة من الهدنة وأداء العمرة والبقاء في مكة ثلاثة أيام .

وهذا منتهى النصر على الاعداء وايكال الهزيمة المعنوية لهم بفضل ما اتخذه الرسول صلى الله عليه وسلم من تدابير أدت الى تحطيم الروح المعنوية لدى قريش والقضاء على نزعات المقاومة فيها .

د) اعلان انتهاء صلح الحديبية :

لما تم توقيع عقد صلح الحديبية بين قريش والمسلمين ، وكان من شروطه حرية الدخول في تحالف ، وتجميع للقوى لكل من أراد ، فكانت خزاعة رغم بقائها على دين قريش اسبق القبائل في الدخول في عقد المسلمين فقالوا (نحن ندخل في عهد محمد وعقده ، ونحن على ما ورائنا من قومنا) فغضب بعض كفار قريش من دخول خزاعة فورا في عقد المسلمين فقال حويطب بن عبدالعزى (ننصر عليهم حلفاءنا بني بكر) فقال له سهيل (اياك ان يسمع هذا منك بنو بكر ، فانهم أهل شوّم ، فيسبوا خزاعه ، فيغضب محمد لحلفائه ، فينقض العهد) وقد ربح المسلمون حليفا قويا له أهمية خاصة لقرب دياره من قريش ، فخزاعة تميل قلبيا الى المسلمين قبل صلح الحديبية وانتشر الاسلام بين افرادها ، ولكنها لم تستطع ان تحالف المسلمين قبل الصلح ، لتهديد مصالحها الدينية في مكة ولوجود البيت الحرام فيها وقريش تسيطر عليه ، وتهدد مصالحها الاخرى .

وخزاعة كانت حتى فتح مكة من أهم عناصر استخبارات الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة ولا تخفي عنه شيئا من أمر قريش .

ولقد اتاحت هدنة الحديبية للمسلمين القضاء على اليهود عسكريا في المدينة ، كما اتاحت لهم السيطرة على القبائل شمال المدينة حتى حدود العراق والشام ، فأنتشر الاسلام بين القبائل العربية كلها فأصبح المسلمون قوة لا تدانيها أية قوة في بلاد العرب .

ولم يبق امام المسلمين الا الاستيلاء على مكة ، التي انتشر فيها الاسلام ايضا ، وما أسهل احتلالها على المسلمين لولا عهد الحديبية الذي يحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على الوفاء به . وبدخول قسم كبير من قريش في الاسلام ، اصبحت كلمة القرشيين متفرقة وأصبح جمعهم على حرب واحدة مستحيلا ، فليس هناك زعيم مسيطر في قريش فأصاب الوهن صفوفهم ، وغزا اليأس نفوسهم (١) .

وأراد بنو بكر حلفاء قريش أن يأخذوا بثاراتهم القديمة عند خزاعة حلفاء المسلمين وحرضهم على ذلك متطرفوا قريش ، وأمدوهم بالسلاح والرجال سرا ، فهجمت بنو بكر على خزاعة بغتة ، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر في الارواح والاموال ، ولما التجأت خزاعة الى البيت الحرام ، طاردتهم بنو بكر مصممة على القضاء عليهم غير مكترثة بعهد الحديبية .

---

(١) الرسول القائد ، محمود شيت خطاب ، ص ٢٢٣ – ٢٢٤

فخرج عمرو بن سالم الخزاعى بوفد من قومه يستنصر الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له " نصرت يا عمرو بن سالم " .

ثم جاء الى المدينة بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة وروي للرسول صلى الله عليه وسلم كيف ظاهرت قريش بني بكر عليهم .

لذلك انتهت الهدنة بين قريش وحلفائها من جهة ، وبين المسلمين وحلفائهم من جهة أخرى وكان السبب في ذلك قريش وبنو بكر .

فأعلن الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك انتهاء صلح الحديبية وأمر بالاستحضارات للحركة لفتح مكة ولم يصرح بذلك لأحد، وبهذا تداعى الصلح .

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أخبر عائشة أنه حدث في خزاعة حدث) فقالت له (أترى قريشا يجترئون على نقض العهد الذي بينك وبينهم) قال (ينقضون العهد لأمر يريده الله) .(1)

فالرسول القائد صلى الله عليه وسلم قد طهر جميع المناطق القريبة منه من الشرك والفساد ولم يبق سوى مكة ، ففي الاستيلاء عليها تدين له بقية الجزيرة العربية ، لذلك كان نقض قريش للعهد تدبيرا اراده الله لفتح مكة .

وتحرك الرسول صلى الله عليه وسلم بعد اعلان انتهاء الصلح لفتحها تدبير امني اقتضته مصلحة الاسلام والمسلمين . فالى متى تبقى قبلة المسلمين في ايد المشركين ؟

(1) العبقريه العسكريه محمود شيت خطاب صفحه 552-553

الفرع الثاني : تدابير اثناء التحرك للغزوة :

عندما قرر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم التحرك لفتح مكة ، بالرغم من انه لم يكن يتوقع حربا مع قريش ، فقد اتخذ جميع الاحتياطات الامنية اللازمة لضمان انجاح خطة الفتح وأعطى الامور كلها أهمية خاصة .

فقد اخفى خبر تحركه الى مكة ، وقدم امامه دوريات الاستطلاع وحصل على المعلومات الكاملة عن العدو بواسطة عيونه في مكة ، وسير أحد الصحابة لقيادة سرية متوجهة الى بطن اضم زيادة في التمويه واعتقاد الناس انها سرية استطلاع وانه سيغزو تلك الجهات.

وعلى تلك المعلومات المتوفرة لديه وضع خطته المحكمة للتحرك الى مكة ومحاولة السيطرة والاستيلاء عليها بدون قتال قدر الامكان لتبقى على حرمتها حتى قيام الساعة .

وبتلك التدابير الغاية في الدقة والجيش المنظم المطيع وحشد الحشود استطاع الاستيلاء على مكة دون قتال ، وتلك هي ذروة الانتصار على الاعداء يقول القائد الصيني صن تزو (ان ذروة فن الحرب هي هزيمة العدو دون قتال)[(١)] .

ولقد رأينا كيف سعى الرسول صلى الله عليه وسلم الى القضاء على معنويات قريش قبل تحركه لقتالهم ، فتوجه الى جيش انعدمت

---

(١) فن الحرب ، صن تزو تعريب محمود حداد ، الطبعة الاولى ص ١١

فيه روح القتال والمقاومة . ويقول القائد الصيني صن تزو في كتابه ايضا (ان الجيش المنتصر يهاجم عدوا منهارا المعنويات ومنهزما) (١) .

لذلك سوف نستعرض في الصفحات القادمة التدابير الامنية التي اتخذها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم اثناء التحرك لغزوة فتح مكة وأثناء المواجهة مع قريش ، ونقول المواجهة مع أن المواجهة لم تكن تذكر نظرا لأنه كان هناك تفاوض ولو أنه شبه رسمي فقط وكذلك المواجهة البسيطة للجيش في الخندمة حيث دارت مقاومة سريعة من بعض المتطرفين من قريش .

أ) السفارة بين المشركين والمسلمين :

رأى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو قائد المسلمين أن ما قامت به قريش من نقض لصلح الحديبية ، لا مقابل له الا فتح مكة .

وعندما أحست قريش بالخطأ وأدركت ما جرته على نفسها من شر بسبب انتهاكها للهدنة القائمة ، فأجتمع رجالها وتشاوروا وقرروا التحرك لانقاذ الحلف من التصدع .

فأستقر رأيهم على أن يتحرك ابو سفيان الى المدينة في محاولة لتثبيت العقد وتأكيده وليزيد في مدته .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥

وما أن تحرك ابو سفيان من مكة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس (كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد في العقد ويزيد في المدة وهو راجع بسخطه) [1] .

وهذا الكلام من الرسول صلى الله عليه وسلم يعتبر تدبير أمني قصد به قطع الوساطة بينه وبين ابي سفيان من صحابته قبل أن تبدأ ولئلا يفكر أحدا منهم بها . فلما وصل ابو سفيان (عسفان) في طريق المدينة رأى بديل به ورقاء وأصحابه عائدين منها ، فخاف أن يكون قد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأبلغه بما حدث مما يزيد في تعقيد مهمته التي جاء من أجلها ، الا انهم نفوا أن يكونوا جاؤا المدينة أو قابلوا أحدا .

وقد حاول ابو سفيان جهده التأكد من ذلك بكل وسائل المكر والتحايل ولكنه لم يفلح ، وبعد مغادرة بديل وأصحابه رأى في روث رواحلهم نوى المدينة فعرف انهم لم يصدقوه الخبر . فاتجه ابو سفيان الى المدينة يحمل على كاهله عبء المفاوضة ، وقصد دار ابنته ام حبيبة ، ولكنها لم تعطه فرصة للبقاء في منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجد بدا من ان يقابل الرسول صلى الله عليه وسلم فلما قابله وذكر له أنه كان غائبا أثناء صلح الحديبية ، وطلب منه أن يزيد في المدة ويوثقه ،

---

(1) العبقرية في غزوات الرسول ، ص ٥٥٤

فسأله ان كان حدث منهم شيئا ولكن ابا سفيان نفى ذلك فقال الرسول صلى الله عليه وسلم له (فنحن على صلحنا ومدتنا) . بعد ذلك اتجه ابو سفيان الى أبي بكر ثم عمر ثم عثمان وأخيرا الى علي بن أبي طالب وابنه الحسن يستشفع بهم ويطلب منهم التوسط لدى قائدهم وكل منهم يستهزئ به ويقول جواري في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما لم يجد احدا يرضي أن يكون واسطته الى رسول الله ، وأوصدت الابواب في وجهه ، وأشتدت عليه الأمور ، ذهب الى المسجد وقال (ايها الناس اني أجرت بين الناس ، ولا والله ما أظن ان يخفرني احد ولا يرد جواري) (1) . وكان ذلك بناء على مشورة على بن أبي طالب ، الذي لعب به في تلك المشورة ثم بعد فشله في سفارته ركب بعيره وأنطلق الى مكة يجر اذيال الخيبة فأستقبلته زوجة هند بنت عتبة وقالت له (ان كنت مع طول الاقامة جئتهم بنجح فانت الرجل) فلما أخبرها بفشله في مهمته ضربت في صدره وقالت له (قبحت من رسول قوم فما جئت بخير) وبعد ذلك اجتمع الناس يسألونه (ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟ قال (لا والله ، لقد أبى علي وتتبعت اصحابه ، فما رأيت قوما لملك اطوع منهم له) فقالوا له (رضيت بغير رضا ، وجئت بما لا يغني عنا ولا عنك شيئا) (2) .

---

(1) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، ص ٥٥٦ - ٥٥٧

(2) المصدر السابق صفحة ٥٥٧

وهكذا فشلت خطة قريش ، وزادت سفارة ابى سفيان وفشله في تحطيم معنوياتها ، والقضاء على ارادة القتال لديها ، وصارت تنتظر كل لحظة وآخرى وصول المسلمين والاستيلاء عليهم بالقوة وتفرقت كلمتهم وأصبحوا في جدل مستمر وخلاف ليس له حدود حتى وصل الرسول صلى الله عليه وسلم بجيشه على ابواب مكة وهم غافلون عنه ففتح له الفتح المبين ، بفضل هذا التدبير الامني الهام في افشال سفارة ابي سفيان وتحطيم معنويات قوية ومعرفة ما وصل اليه آمر قريش من الانحدار والفرقة ٠

ب) استخدام اساليب عسكرية جديدة :

اثناء تحرك الرسول صلى الله عليه وسلم لفتح مكة اتخذ كثير من الاساليب العسكرية الجديدة ، والتدابير الامنية الجيدة التي ساهمت في فتح مكة دون قتال يذكر وبذلك حافظ على ارواح المسلمين ، وعلى معنوياتهم بدرجة عالية من الكفاءة والشعور بالغبطة ، والفرح بنصر الله ، ومن هذه التدابير ما يلي :

١٠ الكتمان ، والمباغته ، والتمويه :

لقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم في تطبيق عامل الكتمان حد الروعة حتى ليمكن اعتبار غزوة فتح مكة برمتها مثالا من أعظم امثلة التاريخ العسكري في تطبيق الكتمان الى آبعد الحدود ٠

فقد حرص اشد الحرص على الا يكشف نيته لاحد عندما اعتزم الحركة الى مكة ،حتى انه لم يبح بنياته لأقرب المقربين اليه ، فقد آمر أهله أن يجهزوه ، ولكنه لم يخبرهم بنياته وأهدافه من حركته

واتجاهها ، حتى انه أرسل سرية ابي قتادة الانصاري الى بطن اضم ليزيد من اسدال الستار الكثيف امام نياته وأهدافه الحقيقية .

وعندما دخل ابي بكر على ابنته عائشة وهي تجهز قال لها هل أمركم رسول الله أن تجهزوه ؟ قالت نعم ، فقال لها فأين ترينه يريد ؟ قالت ما أدري فدل ذلك على أن أقرب اصحابه اليه ابي بكر لا يعلم الى أين سيذهب ؟

وربما ان تلك استراتيجية عسكرية من أبي بكر بالاتفاق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستطلاع والتحقق عن مدى سرية المعلومات وهل هي شائعة ام لاتزال على سريتها وما هو مدى انتشارها ؟ وربما ان عائشة ايضا مطلعة على سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو زوجها وأبو بكر صاحب هجرته فلا يعقل الا يكون أخبرهما ولكن امعانا منهما في حفظ الاسرار وعدم انتشارها ، وهذا تدبير امني على درجة عالية من الدقة ، فيجب على الانسان المسلم عدم افشاء الاسرار حتى لاشخاص يعلم ان لديهم اطلاع عليها أو أن لديهم معلومات مماثلة ، وهذه اعلى درجات السرية .

لما اقترب موعد الحركة الى مكة اعلن الرسول صلى الله عليه وسلم انه سائر الى مكة ولكنه بث عيونه وأرصاده ليحول دون تسرب أخبار تحركه الى قريش ،وبث عيونه داخل المدينة ليقضي على كل خبر من أهلها الى قريش ، وقد رأينا كيف اطلع على ارسال حاطب بن ابي بلتعه برسالته الى قريش ، فأستطاع ان يحجز على تلك الرسالة قبل أن تصل الى ايديهم ، وينكشف سر تحركه الى مكة .

وقد بث دورياته في المدينة وخارجها ليحرم قريشا من الحصول على المعلومات عن نية المسلمين ، وقواتهم ، وتسليحهم ، وعدتهم ، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من ارسال المعلومات اليها .

وبقي الرسول صلى الله عليه وسلم يقظا كل اليقظة ، حتى وصل الى ضواحي مكة ، ونجح بترتيباته في حرمان قريش من معرفة تدابير المسلمين العسكرية .

ولو انكشف أمر المسلمين لقريش في وقت مبكر لاستطاعت ان تحشد الحشود وتضع الخطط للمقاومة أطول مدة ممكنة ، ولأوقعت بقواته خسائر في الارواح والاموال مما لا طائل تحته مادام أن هناك اسلوباً يقي من هذه الحرب وهو اسلوب الكتمان والمباغتة .

ليس من السهل ابدا قديما أو حديثا أن يتحرك جيش كبير تعداده عشرة آلاف راكب وراجل بوسائل مواصلاته القديمة البطيئة الحركة ولهذه المسافة بين مكة والمدينة والتي تتجاوز ثلثمائة ميلا دون أن تعرف قريش أو أحد من حلفائها خبر هذا الجيش ، ووقت حركته ونواياه ، حتى يصل ذلك الجيش الى ضواحي مكة ، فيفلت الأمر من أهل مكة ، ولا يعرفون ماذا يتصرفون سوى الاستسلام ، وماذلك الا لأن ترتيبات الرسول صلى الله عليه وسلم واستغلاله لعنصري الكتمان والمفاجأة حرما قريش من معرفة نواياه وتحركاته .

ومبدأ الكتمان هو أهم عامل من عوامل النصر على الاعداء ولا يمكن تطبيق مبدأ المباغتة ما لم يكن مقترنا بالكتمان .

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك أهمية ارتباطهما في بعضهما وضمان النتيجة اذا احسن استخدامها حيث قال عند عزمه على فتح مكة (اللهم خذ الاخبار والعيون عن قريش حتى نبغتها في بلادها) (١)

٢٠ الاعداد والحشد :

عندما قرر الرسول صلى الله عليه وسلم التوجه الى مكة لفتحها ، أمر بدعوة الناس كافة الى التجهز ، وبعث الى من حوله من العرب وطلب منهم الانضمام الى جيش المسلمين وقال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة)(٢) فأستجاب الناس جميعا لدعوته عليه السلام ، وبدءوا يتدفقون على المدينة فبلغ عدد الحشد عشرة آلاف تقريبا ٠

فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس بانجاز استحضاراتهم للحركة ، والتجهز بالعدة والمتاع وأمر أهله أن يجهزوه ، ولكنه حتى الآن لم يخبر أحدا بنواياه الحقيقية ولا باتجاه حركته ٠

وكانت خطة الرسول القائد أن يدخل مكة دون قتال وهذا يعني ان يفاجيء مكة بجيش كبير لا يستطيع احد مجابهته ، ولا يعلم احد بتحركاته لئلا تحدث المجابهة ٠

وهذا لا يكون الا بحبس واخفاء اخبار المسلمين عن قريش ويتم الاعداد والتجهيز والحشد دون أن تعلم ٠

---

(١) عيون الاثر الجزء الثاني صفحه ٢١٦

(٢) المصدر السابق صفحة ٢١٤

على ضوء هذا المبدأ في التخطيط العسكري السليم اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم عدة قرارات لضمان سرية الحشد والاعداد للمعركة [1].

فأخفى على الناس في مرحلة الحشد الغرض أو المقصد منه ، وكذلك أمر بمراقبة كافة الطرق التي تؤدي الى مكة ، وقرر منع التحرك من والى المدينة (بتقييد حركة السفر) حتى تضل أخبار التحشد غائبة عن قريش .

أمر بالقبض على كل من يقترب من المدينة ويشك في أمره (الحجز الاحتياطي) وقد اسند الرسول صلى الله عليه وسلم تنفيذ هذه القرارات لعمر بن الخطاب لضمان تنفيذها لما عرف منه الشدة في الحق والحرص على التنفيذ

فأصدر اليه القائد أمر صريح وواضح لما يجب أن يتخذه حيث قال له (لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه الا رددتموه) .(٢)

وكان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم يعرف ان اخفاء خطته وتجمعاته وحشوده عن قريش بدعم نجاح الخطة ، ويحقق المفاجأة ، وتحطيم المعنويات .

ولم يكن الاعداد والتحشد استعدادا لفتح مكة وليد الصدفة أو طارئا فقد ابتدأ منذ أن وصل الرسول صلى الله عليه وسلم الى

(١) العبقريه العسكريه في غزوات الرسول صفحه ٥٥٩
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٥٩ -٥٦١

المدينة وجعلها القاعدة الامينة للاسلام ، فكان بناء المسجد ، والمؤاخاة بين المهاجرين والانصار خطوات في الطريق الى جعل اهل المدينة كلهم يدا واحدة على الاعداء ، فلما تم له ذلك حشد قواته فيها استعدادا للقتال ٠

وكان من نتائج صلح الحديبية هدف هام وصل اليه المسلمون وهو تحشيد اكبر قوة ممكنة من المسلمين للقيام بالعمل الحاسم فتح مكة وتوحيد الجزيرة العربية بعد ذلك ٠

لذا فقد امر الرسول صلى الله عليه وسلم أحد اصحابه بالتوجه الى النجاشي في الحبشة لطلب اعادة المهاجرين من المسلمين الى المدينة بعد فتح خيبر مباشرة ، حيث ان سلطان المسلمين اصبح قويا ، ولم يبق هناك مبرر في استمرار المهاجرين في الحبشة بالبقاء هناك بعيدين عن اخوانهم المسلمين الذين يحتاجون لمعاونتهم في نشر الدعوة وتوطيد دعائم الاسلام ٠

فلما قدموا ،فرح المسلمون بقدومهم فأندمجوا بقوات المسلمين ليقوموا بواجبهم في الجهاد ، وبوصول هؤلاء المسلمين بالاضافة الى من دخل في الاسلام اثناء الهدنة وقبلها من قبائل اسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم ، حتى بلغوا ما يقارب عشرة آلاف مقاتل أكتمل تحشد المسلمين واستعداداتهم للدخول في المعركة ٠

وبهذا التدبير الذي اتخذه الرسول صلى الله عليه وسلم لارهاب قريش والايحاء اليها انه لا مجال للمقاومة ، وأمتثالا لأمر الله تعالى بحشد القوى والأموال في سبيل الله ، قال تعالى (انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) [1].

٠٣ الحرب النفسية والاعلامية لتحطيم المعنويات :

ادرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بفكرة الثاقب المتطور أهمية العامل النفسي في حياة المحارب ، وأن نتيجة المعركة تتوقف على العامل النفسي الى حد كبير لذلك كان من التدابير الامنية التي يتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع معاركه وبالاخص عند غزوة فتح مكة التي تعتبر بحق ، معركة معنويات لا معركة ميدان وحرب -- تقوية الروح المعنوية لدى المسلمين - ولم تكن معنويات المسلمين في وقت من الأوقات أعلى وأقوى مما كانت عليه أيام فتح مكة ، البلد المقدس عند المسلمين فلقد كانت مكة ذات اهمية كبرى للمهاجرين حيث انها بالاضافة الى كونها بلدا مقدسا فهي بلدهم الذي تركوه فرارا بدينهم وتركوا فيه أموالهم وأولادهم خارجين مستضعفين ، فهاهم يعودون اليه اقوياء اشداء لا يستطيع أحدا ان يقف في طريقهم ٠

لذلك لم يتخلف أحد من المسلمين عن هذه الغزوة ، الا القليل ممن لديهم عذر مقبول وبنفس الوقت كان الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) التوبة ، ٤١

يسعى الى تحطيم الروح المعنوية لدى المشركين فنجد أن معنويات قريش تسير من سيء الى أسوأ منذ هزيمتها في بدء الهجرة وبدر وتفرقها في الاحزاب والانتصار عليها في صلح الحديبية وعمرة القضاء وغيرها من المعارك ضد حلفائها اليهود والقبائل الاخرى .

فقد كانت معنويات قريش متردية للغاية بسبب انتشار الاسلام في كل بيت من بيوت مكة تقريبا ففقدت روح المقاومة وارادة - القتال .

ومثال على ذلك ما قالته زوجة حماس بن قيس من بني بكر عندما رأته يعد سلاحه لمقاومة المسلمين قبل دخولهم الى مكة ، وأخبرها انه يعده لمحمد وأصحابه فقالت له (والله ما يقوم لمحمد شيء).

ففتح مكة قد تم للمسلمين منذ صلح الحديبية وتم مرة أخرى اثناء عمرة القضاء لانهما اثرتا على معنويات قريش أعظم تأثير.

فعمرة القضاء فتحت قلوب قريش وغزوة فتح مكة فتحت أبوابها ، ومما زاد في تحطيم معنويات قريش وشل كل روح للمقاومة فيها ، ما اتخذه الرسول صلى الله عليه وسلم من ترتيبات ايقاد عشرة آلاف نار في ليلة الفتح ، ونزول الرعب في قلوب قادة قريش .

وكذلك مما حطم معنويات قائدهم ابو سفيان مرور جيش المسلمين عليه وأستعراضه كله امامه بلباسهم المرعب الذي جعلهم كقطع من حديد يسير (لا يرى منهم الا الحدق) حتى انابا سفيان قال

(ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة) .

وكذلك مما حطم معنويات قريش وأسقط في ايديهم ، دخول المسلمين من جميع الجهات في مكة فأين تكون المقاومة ؟

فمعنويات المقاتل سلاح بتار في المعركة ، يفوق كل الاسلحة المادية قوة ، مادام على مستوى المعركة والقتال .

اما اذا فقد المعنويات ، فانه يفقد النصر ويفتح الطريق على مصراعيه للهزيمة والانكسار والخذلان .

ومن هذا المعنى اعد الرسول صلى الله عليه وسلم خطته في المرحلة الثانية من فتح مكة عندما اصبح الهدف معروفاً للجميع وحتى لقريش نفسها ، فأعتمدت الخطة في تلك المرحلة على تحطيم المعنويات وزلزلة نفسية مقاتلي قريش بحيث تخدم هذه الخطة الهدف الرئيسي للرسول عليه السلام من هذه الترتيبات والاجراءات الامنية وهو دخول مكة دون أراقة دماء .

وقد سبق أن اشرنا الى مقالة القائد الصيني صن تزو (ان ذروة فن الحرب هي هزيمة العدو دون قتال) [1].

وقوله أيضا (ان الجيش المنتصر يهاجم عدواً منهار المعنويات ومنهزما) [2] فقد استخدم الرسول القائد كل ذلك وفوقه ، أثناء

---

(١) فن الحرب صن تزو ، تعريف محمود حداد ، ص ١١

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥

غزوة الفتح ، فقد سعى الى تحطيم مقاومة قريش دون قتال ، وأجل عملياته الحربية حتى تحقق من انحلال قواها المعنوية ، وهزيمة نفسها بنفسها معنويا ليقوم بحسم المعركة بكل سهولة .

٤. خطة الهجوم ، وتوزيع الجيش ، وتحقيق الهدف :

اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم خطته في الهجوم على مكة بناءا على معلومات دقيقة تعتمد على تدابير أمنية عالية ، وترتيبات عسكرية محكمة .

فقد وضع خطته لدخول مكة على اساس أن تطبق القوات عليها من جميع نواحيها ثم تدخلها دون قتال ، والا تسفك دما الا اذا اكرهت على ذلك اكراها وأضطرت اليه اضطرارا .

لذا نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدخل مكة فور وصوله الى مشارفها بل انتظر في مر الظهران [1] وأمر صحابته بايقاد عشرة آلاف نار لارهاب قريش وتحطيمها معنويا ، وكذلك استعراض قوته هناك امعانا في ادخال الرعب في قلوب القرشيين ، وارغامهم على ترك المقاومة .

فتأجيل العمليات الحربية حتى انهاك قوى الاعداء ، وتحطيم روح المقاومة لديهم جعل قريش تهزم نفسها بنفسها معنويا ، ومتى

(١) يعرف حاليا بوادي فاطمة على اربعة فراسخ من مكة

انكسرت معنويات الاعداء وأنهزموا نفسيا ، تم القضاء على
ارادة القتال لديهم .

وبالفعل كان هذا هو التدبير الأمني الكبير الذي سعى الرسول صلى
الله عليه وسلم لاحرازه ، فأجل عمليات الهجوم حتى ضمن انحلال
قوى عدوه المعنوية . فقد ارسلت قريش ابا سفيان ، وبديل بن ورقاء ،
وحكيم بن حزام يستطلعون الاخبار ، حينما شعرت ان خطرا يقترب
منها ، حيث كانت قريش منذ نقض الصلح في خوف ووجل وقد اسقط
في يدها لا تدري ماذا تفعل للمواجهة والسيطرة على الموقف .

وقد ادرك العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم الخطر الذي تتعرض
له قريش ، وتمنى لو أن اهلها استسلموا حقنا لدمائهم ، فخرج
بحثا عن بعض الحطابة أو غيرهم ليأتي مكة ويخبر قريش بمكان
الرسول صلى الله عليه وسلم وليخرجوا اليه فيستأمنوه ، قبل
أن يدخلها عنوة ، وربما أن تلك خطة من الرسول صلى الله عليه
وسلم وعمه العباس لتحطيم ما بقي من معنويات قريش تمهيدا
للهجوم عليها وارغامها على الاستسلام .

وهكذا كان ، فقد قابل العباس ابا سفيان ومن معه ، فأخذه الى
رسول الله عليه السلام وأمر صاحباه بالرجوع الى قريش وابلاغها
انه ليس هناك مجال للمقاومة .

فأستأمن العباس لأبي سفيان وآمنه الرسول صلى الله عليه وسلم
وأمر أن يحبسه في رحلة حتى الصباح .

فأراد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم أن يستوثق بنفسه من سير الامور في جيشه ، كما كان يأمل بعيدا عن وقوع الحرب ، فأوصى العباس صباح اليوم الثاني باحتجاز أبي سفيان في مضيق الوادي الذي سيمر منه الجيش في الطريق الى مكة ، حتى يستعرض الجيش الزاحف بنفسه ، فلا تبقى لديه أي فكرة للمقاومة ، فهو قائد قريش ورأسها المدبر ، فالقضاء على معنوياته ، واستسلامه ينهي كل أمل لقريش في المقاومة .

وهكذا كان فقد ارعب الجيش ابا سفيان ، وانطلق الى مكة مبهورا مذعورا حيث قال له العباس (النجاء الى قومك) فأسرع اليهم وهو يقول : يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن) فقالت زوجته هند قبحت من طليعة قوم ، ولكنه استمر في تحذيره لقريش غير آبه بها ، فقالوا له : قاتلك الله وما تغني عنا دارك ؟ قال (ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن) .

عند ذلك اسقط في ايدي قريش مرة اخرى فهذا قائدهم وصاحب الرأي فيهم اعلن استسلامه وخضوعه ، كذلك وضع الناس سلاحهم واغلقوا عليهم دورهم اعلانا للاستسلام عدا قلة متطرفة قاومت قليلا وما هي الا لحظات حتى تفرق شملها .

فأعلن بذلك قائد قريش الاستسلام العام ، وحضر التجول في مكة ، حتى يتم وصول الجيش الاسلامي واستيلائه على البلاد بدون مقاومة حقنا للدماء وصيانة لحرمة مكة وبيت الله الحرام .

بعد ذلك قام الرسول صلى الله عليه وسلم بتوزيع الجيش حسب خطة الهجوم المقررة ، وهو الاطباق على مكة من جميع الجهات ليقضي على كل محاولة للمقاومة ، فلم يمنع اسلام قائدهم الرسول صلى الله عليه وسلم من اتخاذ جميع الاحتياطات الامنية اللازمة .فكانت الخطة التي سيسير عليها في الهجوم كالتالي :

الكتيبة الاولى : ويقودها الزبير بن العوام ، وقد أمره الرسول القائد العام للقوات بدخول مكة من اعلاها شمالا فدخلها بدون مقاومة .

الكتيبة الثانية : يقودها خالد بن الوليد وأمره بالاستيلاء على مكة من اسفلها ناحية الليط ، وهي الجهة التي يتوقع منها القائد العام المواجهة حسب المعلومات المتوفره لديه والتي حصل عليها بواسطة رجال مخابراته في مكة . لذلك اوكل امرها الى خالد بن الوليد ، لما عهد فيه من الخبرة والجرأة والشجاعة . وقد حدث ما كان يتوقعه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم فحدثت المواجهة بين متطرفي قريش وكتيبة خالد ولكنه قض عليها في مهدها .

الكتيبة الثالثة : يقودها سعد بن عبادة ، وأمره الرسول القائد بالاستيلاء على مكة من غربها .

فلما وجد فيه حدة وغلظة نحو قريش ، وتبينت نية القتال والحرب، وهذه مخالفة صريحة لامر القائد العام ، عزله وسلم زمام أمور الكتيبة لابنه قيس حتى لا يجد في نفسه شيئا ، وكان ابنه أهدأ

منه والين .

الكتيبة الرابعة : يقودها ابو عبيدة بن الجراح ، وفيها القائد العام وكبار مستشارية وأهل الرأي والبصيرة ، وجميع المهاجرين وأمره أن يدخل مكة من ضواحيها الشرقية .

فوزع الالوية على قادته بعد أن حدد لهم مواقع الهجوم وأمرهم جميعا بعدم القتال فتحركت تلك الكتائب وهي تكون أربع جبهات لا يمكن لأحد مقاومتها ،أو الوقوف بطريقها (1) .

فلما دخل القائد العام مكة بدون مقاومة تذكر استوقف كتائبه في المكان المحدد للاجتماع بالجيش كاملا حسب خطة الهجوم التي يسير عليها ، في منطقة جبل هند بعد أن سيطرت قواته على جميع مداخل مكة ، فلما ارتاح وتجمعت قواته كاملة ، ابلغها توجيهاته ، والتدابير الامنية التي سيتبعها للقضاء على فلول اعداءه ممن لم يشملهم عقد الامان في مكة .

وكذلك الطريقة التي سيتخذها لايجاد حماية خاصة للكعبة حيث ذكر لهم ان بيت الله الحرام بمكة هو قبلة المسلمين ومحور حجهم وانه يحرص على صيانتها وحمايتها بأمرين هما :

الأول : تطهيرها من وسائل الشرك والوثنية

ثانيا : صيانتها من دخول المشركين اليها بعد الفتح صيانة لحرمتها في الاسلام

---

(1) "حياة محمد" محمدحسين هيكل" ، الطبعة الحادية عشرة ، ص ٤٢١ – ٤٢٦

بل أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل الأمن داخل الكعبة ، وهذا يعني ان الرسول سيمنع مهاجمة من يدخل فيها حرصا على اهميتها الدينية . وقد منع القتال حولها ، مما يعرضها أو بعض اجزائها للتهدم بالاضافة الى ما فيه من انتهاك لحرمتها .

وبدخول الرسول صلى الله عليه وسلم الى مكة واذعانها له أصبح هو القائد العام فيها ، وانتهى صراعه مع قريش التي اخرجته ونبذته في بداية دعوته وحيدا خائفا الا من صاحبه ابي بكر ومع ذلك فقد حرص منذ خروجه من المدينة حتى تم له الفتح العظيم على التمسك بتحقيق الهدف الذي سعى من اجله وعلى نياته السلمية ليؤلف بذلك قلوب المشركين ويجعلها تقبل الاسلام ، والاستسلام دون قتال ، ومنع المقاومة بهدف السلم وحقن الدماء ، وليس أدل مثالا على ذلك من اصدار العفو العام عن قريش ، فأتخذ هذا التدبير الامني الهام اذ ليس من السهل أن ترضى قريش بمصيرها هذا وتقبل على الاسلام طائعة وتحمل رايات الجهاد لو لم تعامل هذه المعاملة السلمية التي لم تكن تتوقعها ، وبذلك انقلب موقفها من اشد الناس عداوة للاسلام وكراهية للرسول الى أحرص الناس على رفع راية الاسلام .

بعد ذلك انقلبت موازين القوى في الجزيرة العربية لصالح المسلمين فدخل الناس في دين الله افواجا .

وهذا هو الهدف الاسمى من الوصول الى قبلة المسلمين ومركز قيادة المشركين مكة المكرمة ، والاستيلاء عليها واخضاعها لسلطان الاسلام.

الفرع الثالث : تدابير بعد تمام الفتح :

بعد أن اتم الله سبحانه وتعالى فتحه ، وأنعم على المسلمين ، وغيرهم بفتح القلوب المغلقة ،وبنصره لعباده ، فكان جيش الفتح سفارة الهية بقيادة الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم ، احتوت عبر السماء ، وتوجيهات اله السماء ، وظهرت حكمة الرسول القائد والهاماته ، وأدب السلوك الاجتماعي الاسلامي ، وبعد مراميه .

فقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة لا كالفاتحين الغزاة ، وانما كان خاشعا متواضعا لله تعالى يحمده على نصره له وللمسلمين .

ورغم ذلك كله فلم يغفل الرسول القائد صلى الله عليه وسلم الجانب الامني لمكة المكرمة وجعلها القاعدة الامينة الثانية بعد المدينة فأتخذ بعض التدابير الامنية التي تضمن تحقيق هدفه ذلك منها :

أ) تدابير أمنية تتعلق بالوضع العسكري :

بعد أن دانت مكة كلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ التدابير الهامة لعودة البلاد الى وضعها الطبيعي ، والغاء حالة منع التجول التي فرضها اثناء دخول قواته الى مشارفها المباركة ، وابعادها عن جو الحرب والقتال بعد استسلامها ، لذلك نجده عليه السلام :

(١) يعلن ان مكة حرام الى يوم القيامة ، ولم تحل له الا ساعة

من نهار ثم رجعت كحرمتها يوم خلق الله السموات والارض ، وأن على الشاهد أن يبلغ الغائب .

(٢) يدعو الى تطبيق مباديء الامن العام في مكة كلها فنجده كما حرص على الأمن الجماعي لأهل مكة حرص على أمن الافراد، فعندما قتلت خزاعة رجلا من هذيل غداة يوم الفتح لثأر سابق غضب اشد الغضب ، ثم ودي الرجل الذي قتلته خزاعة ، وكذلك حفظا للأمن العام وتأليفا للقلوب لم يقتل فضالة بن عمير الليثي وقد جاء لقتله وهو يطوف بالبيت ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم تلطف معه وعفا عنه .

(٣) العمل على تأمين مكة من العدو الخارجي ، حيث ان الرسول صلى الله عليه وسلم في اليوم الخامس من اقامته فيها بعث عددا من السريا لدعوة القبائل المجاورة لمكة وهدم الاصنام خارج مكة .

وكذلك خروج الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، لما علم أن هوازن وثقيف اجمعوا امرهم على غزو مكة ، فرأى ان يسير اليهم قبل أن يداهموه فيها ويستحيوا حرمتها ، فقض عليهم في غزوة حنين . وبذلك أصبحت مكة قاعدة أمينة أخرى للاسلام .

(٤) عندما قرر الرسول صلى الله عليه وسلم مغادرة مكة لم يشأ أن يتركها دون أن ينظم امورها ، وايكال مهمة تصريف احوال

الناس فيها الى من يثق به . لذا فقد ولى عليها عتاب بن أسيد ليكون مسئولا امامه عن كل ما يحدث فيها .

بعد ذلك توجه الرسول صلى الله عليه وسلم لمواصلة الجهاد والدعوة في سبيل الله وهو آمن مطمئن .

ب) تدابير أمنية تتعلق بالوضع الاقتصادي والاجتماعي :

حينما دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة سعى لتنظيم الوضع الاقتصادي والاجتماعي فيها فأتخذ بعض الترتيبات والتدابير الاتية :

أولا : في الوضع الاقتصادي :

١. حيث ان اهل مكة حديثوا عهد بالاسلام ، فقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم ، باعطاء ساداتهم عطايا جزالا من الغنائم التي حصل عليها اثر غزوة حنين من ثقيف وهوازن بعد هزيمتها ، وذلك لتأليف قلوبهم واحتياطات أمنية لاستمرار بقائهم على الاسلام .

٢. لم يقم الرسول صلى الله عليه وسلم بتوزيع أراضي مكة على الفاتحين مع أن الاستيلاء عليها كان عنوة حسب اغلب الروايات وما أراه شخصيا لأن فتح مكة كان اثر نقض الصلح ، وحدثت بعض المقاومة من قريش والامان كان قاصرا على من لم يحارب ، وبذلك ضمن الرسول صلى الله عليه وسلم كتدبير أمني منه عصبة قريش وهم سادة العرب ومما ساعد في استتباب الأمن في مكة .

٣. حيث ان سبى نساء وأطفال ، وأخذ اموال المحاربين بعد الانتصار عليهم أمرا واردا في جميع غزوات الرسول صلى الله عليه

وسلم الا انه استثنى قريشا من ذلك بعد الفتح ووهب كل رجل منهم أهله وماله وداره لئلا تحدث الفوضى في البلاد وتستحل حرمة البلد الحرام .

ثانيا : في الوضع الاجتماعي :

١. اصدار العفو العام ، حيث قال لقريش بعد ان جمعهم يوم الفتح (يا معشر قريش ، ما ترون اني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال اذهبوا فانتم الطلقاء .

فالتاريخ العسكري القديم والحديث طافح بأعمال الظلم والانتقام التي يرتكبها المنتصرون ولو كان الانتصار على الضعفاء والمساكين الذين لا حول لهم ولا قوة ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يختلف عن هؤلاء جميعا فقد كان يوم فتح مكة متواضعا لله ، فأثر هذا التواضع على من لم يسلم من قريش ، فأذعنوا للاسلام ورغم أنهم اعداء الله ورسوله قبل الفتح فقد اصدر عفوه العام عمن اسلم وغيره انتظارا لاعلانه الاسلام قريبا جدا .

٢. ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثالا عظيما للوفاء وحسن المعاملة اثناء فتح مكة وبعد أن اتم الله الفتح على يديه .

فقد حرص على أن يبقى حجابة البيت في أهلها حيث قال : لعثمان بن طلحة (يا ابن طلحة ، هاك مفتاحك ، اليوم يوم بر ووفا)[1] .

---

(١) الرسول القائد ، محمد شيت خطاب ، ص ٢٤٠ .

لذلك قال عنه اعداءه قبل اصدقاءه (انه أوصل الناس وأحلمهم وأكرمهم وأوفاهم)ـ وهذا بالاضافة الى كونه خُلقه ـ فانه مما اثر في قريش وغيرها لقبول الدعوة وأتباعه ٠

ج) تدابير تتعلق بالناحية الدينية :

١٠ القضاء على الاصنام في مكة وما جاورها :

ان تحطيم الاصنام في مكة يوم الفتح ، قض على عقيدة الاشراك بالله في أقوى معاقل الشرك وأمنعها في الجزيرة العربية كلها ٠ وبتحطيم الاصنام ، وهي التي يعبدها المشركون ويقربون اليها القرابيين ويعتقدون استطاعتها النفع والضر ، ويخافون منها فلا يمسونها بسوء ٠

رأوها تتحطم اما ناظرهم ، ولا تستطيع أن تذود عن نفسها أو تصيب من يحطمها بأذى كما كانوا يعتقدون ، كل ذلك نزع من قلوبهم وعقولهم اعتقاد قدسيتها وفائدتها لهم ، وبالقضاء على اكبر معقل من معاقل الاصنام في مكة ، وما قامت به السريا التي بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح مباشرة للقضاء على الاصنام في القبائل المجاورة لمكة ، تحركت قلوب الناس في شبه الجزيرة العربية كلها لعبادة الله سبحانه وتعالى والتخلي عن عبادة الاصنام وغيرها ٠

٢٠ دخول الناس في دين الله افواجا :

كان الهدف الاساسي من القضاء على الشرك في مكة ، وهي قبلة العالم وفيها بيت الله الحرام ، خضوعها لسلطان الاسلام ، أولا ،

وابعاد الخوف والتردد في قلوب القبائل الاخرى في شبه الجزيرة العربية ثانيا ، حيث ان اغلب القبائل في الجزيرة تنظر الى قريش على انها صاحبة السيادة والريادة في العرب ، ومتى سقطت فلا شيء بعدها لذلك نجد أنه بالقضاء على سلطان الشرك في مكة دانت جميع القبائل للاسلام فأصبح الناس يتوجهون الى الاسلام وينبذون الوثنية والشرك بعيدا وهذا مصداق لقول الله تعالى (اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا/فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا) [1] .

---

(١) سورة النصر كاملة

المبحث الثالث

الدروس المستفادة من غزوة فتح مكة

لقد خرجنا من غزوة فتح مكة بدروس ونتائج تحتاج لدراسة وتحقيق من مؤرخي السيرة ، وتصل الى صفحات وصفحات ، ولكننا ارتأينا استعراض جزء منها في هذا البحث المختصر جدا وسوف نتطرق اليها حسب التقسيمات الآتية :

الفرع الأول : دروس مستفادة في محاربة الاعداء :

رأينا في استعراضنا لهذا البحث أن حصول الرسول القائد صلى الله عليه وسلم لنتائج غزوة فتح مكة وسيطرته الكاملة عليها في أقل من نهار وبدون قتال أو اراقة دماء لم يكن بطريق الصدفة بل كانت بموجب خطط ودراسة عميقة لاحوال قريش ومقدمات مضنية ، وأنه حدث بعد الحصول على معلومات دقيقة عن الاعداء ، وبعد نظر في التخطيط والتنفيذ والتنظيم بدرجة لم يسبق لها مثيل في التاريخ القديم أو الحديث ، حتى قال المؤرخون عنها انها كانت حرب اعصاب ومعنويات ليس الا .

ومن هذه الدروس : .

أ) المباغتة والكتمان :

فقد كان فتح مكة مثالا حيا للمعركة الحديثة التي تعتمد على تخطيط دقيق وسرية مطلقة . فالرسول صلى الله عليه وسلم حرص اثناء اعداده ، وعندما اعتزم التحرك لفتح مكة ان يلتزم

في ذلك مبدأ الكتمان الشديد ، فلم يطلع أحدا من اصحابه ، حتى أقرب المقربين اليه عن نياته ، وبقيت خطته سرا مكتوما حتى تمت جميع الاستحضارات للحركة ، وعندما اباح بنواياه قبيل موعد خروجه من المدينة ،وسيره الى مكة وفي اللحظات الاخيرة من موعد الحركة ،فقد بث عيونه وأرصاده ودورياته لتحول دون تسرب المعلومات عن حركته الى مكة ، وليقضي على كل خبر من اهل المدينة الى قريش ، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من ارسال المعلومات اليها ٠

وبقي الرسول صلى الله عليه وسلم يقظا كل اليقظة ، يقبض على كل من يرتاب في أمره اثناء سيره ويحتجزه ، حتى وصل ضواحي مكة ، ونجح بتدابيره العسكرية وترتيباته حسب الخطة المرسومة في حرمان قريش من معرفة أي شيء عن المسلمين وبذلك حصل عنصر المفاجأة وأخذهم على بغتة ٠

ولو عرفت قريش بنيات المسلمين منذ البداية لاستطاعت أن تحشد قواتها ضد المسلمين ، وتنظمها ، وتعد الخطط اللازمة للمقاومة فليس من السهل أن يتحرك جيش قوامه عشرة آلاف محارب بمعداتهم ووسائل مواصلاتهم البطيئة ويسير على هذا الطريق الطويل بين مكة والمدينة ويباغت قريش في عقر دارها دون أن تعلم عنه شيئا لولا ترتيبات الرسول صلى الله عليه وسلم التي أمنت له مباغتة جيدة وكتمان شديد أدت الى حصوله على الاستسلام من قريش ، وافلات زمام الامور من يدها ٠

ب) المعلومـــــات :

حيث ان خطة المعركة للقائد البصير ، تعتمد على معرفة سر الاعداء والمعلومات الدقيقة عنهم ، من ناحية نواياهم وعدد قواتهم وتنظيمها وتسليحها ونقاط الضعف والقوة فيها ومواقعها واسلوبها في القتال فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يغفل هذه الجوانب كلها ، فقد استطاع أن يعرف كل شيء عن قريش بواسطة عيونه ، في مكة كعمه العباس وكذلك ما حصل عليه من وفد خزاعة الذي جاء ليستنصره على قريش .

وعلى ضوء هذه المعلومات وضع الرسول صلى الله عليه وسلم خطته المحكمة والتي سيطر بها على مكة في زمن بسيط .

وبنفس الوقت حرم قريش من أي معلومات عن قوات المسلمين ونواياهم فنجد ان ابا سفيان لما قدم المدينة حاول معرفة نوايا الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يفلح وحاول قبل ذلك أن يعرف شيئا من وفد خزاعة ففشل حتى وصلت قوات المسلمين ضواحي مكة .

ج) بعد النظر :

بالرغم من عدم توقع الرسول صلى الله عليه وسلم أي مقاومة تذكر من قريش نتيجة للمعلومات المتوفرة لديه عنها فقد اتخذ لكل احتمال متوقع التدابير الوقائية والخطة البديلة لينفذها متى احتاج اليها ، ودون أن يترك مصير قواته للاقدار .

فهو يؤمن أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء من عبـــاده ، ولكنه انطلاقا من مبدأ (اعقلها وتوكل) احب ان يحتـــاط لكل احتمال وارد أو غير وارد ، ويضع كل صغيرة وكبيـــرة ربما تعترض طريقه نصب عينيه فهو يضع أسوأ الاحتمالات المتوقع حدوثها في اعتباره عند الاقدام والتحرك لأي غزوة يريدها .

فقد أمر في غزوة فتح مكة بحشد الحشود حتى بلغ جيشه عشـــرة آلاف مقاتل وتوجه بهم الى قريش ، وهو في غزواته السابقـــة ينتصر عليهم وهم كثرة والمسلمين قلة ، ولكنه امعانا مـــنه في الاحتياط واعداد العدة للنصر أمر بذلك .

ولما أمر العباس أن يحتجز ابا سفيان في محبس الوادي ، حتـــى تمر به قوات المسلمين ويشاهدها عن كثب ، فيحدث قومه عن ذلك على بينه ويقين ، ولتتحطم معنوياته تماما ، ويقضي على مـــا يمكن ان يكون لديهم من روح للمقاومة . وكذلك وضع الرســـول صلى الله عليه وسلم أسوأ الاحتمالات عندما وضع خطة الفتـــح لتطويق مكة والاطباق عليها من جميع الجهات ، لكل قوة قيادتها المستقلة وايجاد عدة جبهات للقتال فيما لو حصلت المواجهة .

تلك هي أهم النماذج لبعد النظر التي يجب أن يتسم بها القائـــد العام لكل جيش من جيوش المسلمين .

فما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم يعتبر بحق مثـــالا يحتذى لبعد النظر والتخطيط لكل الاحتمالات ووضع كل صغيـــرة وكبيرة بالاعتبار .

د) ـ المعنويـــــــات :

ابتدأت حرب المعنويات أو (الحرب النفسية) بين المسلمين وقريش منذ افلات الرسول صلى الله عليه وسلم من قبضتها وهجرته الى المدينة ، وحشد القوى ضد قريش وهزيمتها في بدر أولا وفي صلح الحديبية وعمرة القضاء أخيرا . وكذلك بنصر الله لرسوله ضد اليهود حلفاء قريش في المدينة والقبائل الاخرى ، وكذلك قطع طرق التجارة والقوافل على قريش من مكة الى الشام .

ولكن لحظة الحرب النفسية الحرجة حانت ، بعدما وصل الرسول صلى الله عليه وسلم الى مر الظهران وايقاد عشرة آلاف نار بعدد جيش المسلمين ، فلما رأت قريش ذلك اصابها الرعب والهلع والخوف وأرسلت من يتحسس الخبر . فأصبحت معنويات قريش في حالة يرثى لها ، ومتردية للغاية ، فلما شاهد القرشيون جحافل جيش الاسلام تتقدم نحو مكة اسقط في ايديهم ورأوا أن الاستسلام افضل وسيلة للخلاص .

أما معنويات المسلمين فلم تكن في وقت من الاوقات أفضل منها يوم فتح مكة فالنفوس مطمئنة والقلوب فرحة بالفتح العظيم الذي وعد الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ، فهاهم يعودون لبيت الله الحرام ، وقبلة المسلمين ، ويسعون للقضاء على أكبر معاقل الشرك في الجزيرة العربية ، وهكذا كان .

فاستولى المسلمون على مكة دون قتال يذكر ، نظرا لانحدار معنويات قريش وعدم قدرتها على المقاومة فكانت غزوة فتح مكة

بحق معركة معنويات وهكذا تحققت خطة الرسول صلى الله عليه وسلم لتحطيم معنويات القرشيين وفقدانهم القدرة على المواجهة والقتال ٠

الفرع الثاني : دروس مستفادة في معاملة الاعداء :

لم يشهد التاريخ لامة من الامم بمثل الشهادة التي شهدها للمسلمين اثناء غزواتهم وانتصاراتهم على اعدائهم ، فلقد كانوا أول قتالهم مجاهدين وبعد انتصارهم مصلحين مسالمين ، ولم يؤذوا من انتصروا عليهم قط ، لذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم عامل قريش لما انتصر عليهم في مكة معاملة خاصة تتسم بنشر السلام والوفاء بالحقوق والتواضع لله وعدم الغدر ومن هذه الدروس :

أ) السلم :

منذ أن خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة الى مكة وهو حريص على وحدة الهدف والتقيد بنياته السلمية ، للحصول على استسلام قريش ، دون التعرض للحرب والقتال واراقة الدماء ٠

فسعى الى تحقيق هذا الهدف بكل ما أوتي من قوة ، ومن وسائل جديدة تؤدي الى نزع الاستسلام من القرشيين ، بعد تحطم قواهم المعنوية ، والاحتفاظ بقواهم المادية لاستخدامها في معارك الاسلام القادمة فايقاد النيران ليلة الفتح واستعراض الجيش على ابي سفيان وتطويق مكة من جميع جهاتها لم تكن الا وسائل لتحطيم المعنويات ونشر السلام في البلاد ٠

كما أن اعلان حالة الطوارئ. وفرض منع التجول في البلاد ، واصدار العفو العام عن قريش ومنع القتال الجماعي والقتل الافرادي ، كل ذلك يهدف الى السلم وحسم الموقف دون قتال .

وكان هدف الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك كله تأليف قلوب قريش على الاسلام ، وتوحيد كلمتها لتقبل الاسلام دفعة واحدة .

فالسلام مما أمر الله به مادام الاعداء قد جنحوا اليه ، وهو جزء من دين الاسلام .

ب) الوفاء :

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وفيا في كل الاوقات ولم يغدر في حياته مرة واحدة .

كيف لا ؟ وهو الذي يأمر بذلك ويعد الغدر من صفات المنافقين فقد كان وفيا لاصحابه وبنفس الوقت. وفيا لاعدائه ، لا يتطرق الغدر والخداع والمكيدة الى نفسه .

وقلما نجد في التاريخ البشري كله وفاء يشبه وفاءه ، فعندما دخل مكة وأذعنت له بعد فراق طويل ، والتف حوله أهله وعشيرته ورآه الانصار على ذلك قال بعضهم لبعض " اترون رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ فتح الله عليه ارضه وبلده ، يقيم فيها ؟ ولكنه سرعان ما علم بمقالتهم قال : (معاذ الله . المحيا محياكم والممات مماتكم) . فقد ابى عليه وفاءه ان يستقر بمكة .

كما انه أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة فلما شاهده علي بن أبي طالب بيده قال له (يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية) ولكنه قال : اين عثمان بن طلحة ؟ فلما جاء اليه قال له : (يا ابن طلحة ، هاك مفتاحك ، اليوم يوم بر ووفاء) (1)

ج) التواضع :

قلما يستطيع قائد جيش انتصر على اعدائه ، انتصارا حاسما السيطرة على اعصابه وأعصاب جيشه .

ولكن نصر المسلمين يوم الفتح جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يتواضع لله ، حتى رآه المسلمون ذلك اليوم على راحلته ورأسه قد انحنى على رحله ، من شدة التواضع لله ، حتى كادت لحيته ، ان تمس رحله خشوعا ، وترقرقت في عينيه الدموع شكرا لله .
ان تواضع الرسول صلى الله عليه وسلم درس عملي يجب أن يتحلى به كل قائد منتصر حيث تصعب السيطرة على الاعصاب .

الفرع الثالث : دروس مستفادة في تأمين الدعوة :

من المسلم به أن الوصول الى قاعدة القيادة في أي حركة مهما كان نوعها والسيطرة عليها واخضاعها لسلطة المنتصر يؤثر تأثيرا مباشرا على جميع الاطراف التي لها علاقة بتلك القاعدة .

وما أن سيطر الاسلام على مركز قيادة الشرك في مكة حتى دانت جميع القبائل العربية في الجزيرة العربية الى الاسلام ، ولننظر

(1) الرسول القائد ، محمود شيت خطاب ، ص 240

الى بعض الدروس المستفادة من ذلك :

أ) ترسيخ العقيدة في الجزيرة العربية :

كانت مكة قبلة العرب جميعا ، فتنظر اليها القبائل في الجزيرة العربية على انها مركز السيادة والريادة والقوة ، فأصبح القرشيون ينظرون الى انفسهم تلك النظرة فأصابهم الغرور والتحدي.

لذا نراهم يصرون اثناء تحرك الرسول صلى الله عليه وسلم لفتح مكة (الا يدخلها عليهم عنوة فتتحدث عنهم بذلك العرب) مما يحط في قدرهم ومنزلتهم ولكن بعد أن تم الفتح العظيم وأستسلمت قريش كلها ودخلت الاسلام تبعها كل من كان يسير في فلكها ولم يدخل الاسلام بعد ، الا من آخذته العزة بالاثم فكان جزاءه القضاء عليه عسكريا كثقيف وهوازن وغيرها .

وبدخول قريش في الاسلام تم ترسيخ العقيدة الاسلامية في نفوس الناس وقبلتها قلوبهم فامنت الدعوة من العودة الى الشرك .

ب) تحطيم الاصنام :

بتحطيم الاصنام في مكة وما جاورها من البلاد تم القضاء على أكبر معقل من معاقل الشرك ولم يجد الناس ما يعبدونه كما كانوا يفعلون سوى خالقهم سبحانه وتعالى لذلك تم تأمين الدعوة من هذه الناحية .

ج) القضاء على كل مظاهر الشرك في مكة :

بعد ان استسلمت مكة للمسلمين ، وأمر الرسول صلى الله عليه

وسلم بتحطيم الاصنام وتمزيق الصور التي داخل الكعبة .

اتجه نظره لتطهير مكة كلها من مظاهر الشرك ، فلم يسمح للمشركين الذين لا يزالون على غيهم بأن يجهروا بشركهم أو يدعوا اليه أحد من الناس كما كانوا يفعلون قبل دخول مكة .

كما أن من بقي من قريش على شركه لم يستطع التعرض للمسلمين ، بالايذاء أو التعذيب ، فأنعكست الآية وحينما أخرج أهل مكة الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يدعون انهم صابئين ، ولكن معاملة الاسلام لهم لم تكن بالمثل بل العفو عما سلف والاعراض عن المشركين .

وبذلك تم تأمين الدعوة بصفة كاملة فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم الا يحج مشركا بعد عامهم هذا ، وبصدور هذا الامر تم القضاء نهائيا على كل مظهر من مظاهر الشرك في مكة .

خاتمة

وبعد أن فصلنا موضوع التدابير الأمنية التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح ، يتضح لنا أن كل ذلك لم يأت من فراغ ، وأن هدف الرسول الاعظم منذ خروجه من مكة مهاجرا وحتى عودته اليها منتصرا انتصارا حاسما كان يعد العدة لهذا الفتح العظيم ، فيكون الجيش الاسلامي الذي لا يقهر متخذا بعض الخطوات والتدابير التي تدفع به الى الامام ، فقد ابتدأ عليه السلام تكوين الجيش الاسلامي بغرس مفاهيم ارادة القتال في نفوس المسلمين وعقولهم معا وذلك باتباع اسلوب تقوية معنويات المسلمين والمحافظة عليهم ، وبنفس الوقت شن الحرب النفسية ضد الاعداء .

فقد حث الاسلام على الطاعة وهي تعني الضبط والنظام قال تعالى (وقالوا: سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) [1] .

وأشاع الاسلام معاني الخلق الكريم والصبر الجميل قال تعالى (ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) [2].

وقال تعالى (اصبروا وصابروا ورابطوا وأتقوا الله) [3] .

وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال ، أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير) [4] .

فهدف الجهاد في الاسلام حرية نشر الدعوة الاسلامية ، والسلام ، والدفاع عن دار الاسلام وتعاليم القتال التي زرعها الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس

(١) البقرة آية ٢٨٥ (٢) النحل آية ١١٠

(٣) آل عمران آية ٢٠ (٤) الانفال ١٥ – ١٦

المسلمين ، تنص على الوفاء بالعهود ، وأحترام المواثيق ، والترفع عن الظلم والعدوان ، واقرار السلام • فأهداف الاسلام هي أهداف القتال ، حيث ان القتال وجد للمحافظة عليه ونشر تعاليمه •

وارادة القتال لدى المسلم مبنية على اسس رصينة ، لأن المسلم يؤمن ايمانا كاملا بأنه يخوض حربا عادلة وهذه الحرب هي الحافز الذي يجعل من المؤمن مقاتلا رهيبا كما يعبر عن ذلك علماء وخبراء الحرب •

وهذه الارادة لدى المسلم ايام الحرب تسيطر عليه سيطرة تامة اثناء السلم والهدف الحيوي من الحرب هو تحطيم الطاقات المادية والمعنوية للعدو وبالانتصار عليه في ميدان الحرب ، تتحطم طاقاته المادية ، والقيام بجهود أخرى للقضاء على معنوياته يكون النصر كاملا ويؤدي الى الاستسلام •

ومن هذا المنطلق تبدأ الحرب النفسية ، التي تستهدف بالدرجة الاولى الطاقات المعنوية للاعداء • وهكذا فعل الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة فتح مكة •

والاسلام بنفس الوقت يحافظ على معنويات المسلمين من الانهيار ويصونها في أيام السلم ، لتبقى مرتفعة في كل وقت •

وقد اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم اسلوبا قرآنيا لم يسبق استعماله من قبل للمحافظة على الروح المعنوية لافراد الجيش والامة المسلمة وبالتالي القضاء على معنويات الاعداء •

فقد جعل الرسول القائد لكل عنصرا من عناصر الحرب النفسية المضادة قاعدة يسير عليها المسلمين .

وأكثر الاهداف التي يسعى الاعداء لتحطيمها لدى الامة المسلمة التخويف من الموت ، والفقر ، والقوة الضاربة للمنتصر ، ومحاولة جعل النصر حاسما ، والدعوة الى الاستسلام ، وبث الاشاعات والاراجيف ، واشاعة اليأس والقنوط ولكن المسلم حقا لا يخشى كل ذلك لأنه يعلم انها بيد الله سبحانه وتعالى ، وليس للبشر دور في تصريفها (١) .

فكما اشرنا سابقا ان الحوافز الروحية هي التي تقوى معنويات المسلم وتؤجج روح القتال فيه .

ولكن هناك حوافز مادية اخرى لا تقل أهمية عن الحوافز المعنوية (الروحية) تلعب دورا بارزا في تقوية ارادة القتال في نفوس وعقول الجيش المسلم ومنها ما يلي :

١ - عدم الاستهانة بالعدو مهما رأى القائد أن الانتصار عليه سهلا

٢ - الاعداد الحربي تدريبا وتسليحا ، وتنظيما ، وتجهيزا ، وقيادة .

فالمسلمون عندما استهانوا بعددهم يوم حنين انهزموا قال تعالى (ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) (٢) .

وعند التوجه لفتح مكة واتخاذ كافة التدابير الامنية ووضع الاعداء امام مقاتلي المسلمين وكأنهم قوة لا تقهر يجب الحذر منها ، واتخاذ كافة الوسائل

---

(١) كتاب المؤتمر الرابع لمجموع البحوث الاسلامية بالازهر ، ص ١٤٩-١٥١ بتصرف

(٢) التوبة ٢٥

والتدابير ، القضاء عليهم معنويا وماديا ، تم الانتصار عليهم دون قتال يذكر فكان اعظم فتح في التاريخ .

فالحذر واليقظة من مظاهر عدم الاستهانة بالعدو قال تعالى (ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)(١) .

والاعداد الحربي اعدادا متكاملا ، يرفع المعنويات ، ويقوي الثقة في النفوس ويلهب الحماس في القلوب ، ويدفع ارادة القتال الى الامام .

قال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)(٢) .

تلك هي بعض الحوافز المادية والمعنوية والتدابير الامنية التي استوحاها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم من ربه فجعلت من المسلم انسانا مطيعا صابرا ، شجاعا ،مقداما ، صامدا ، مقبلا ، مجاهدا ، مؤمنا بمثل عليا مضحيا من أجلها بالمال والنفس والنفيس .

فهو يخوض حربا عادلة لاحقاق الحق وازهاق الباطل ، فلا يخاف الموت ولا يخشى الفقر ، ولا يهاب ولا يستسلم .

وهذا ما يفسر لنا سر الفتح الاسلامي العظيم في جميع اصقاع الدنيا بذلك الجيش الذي بدأ أول غزواته بفئة قليلة ولكنها غلبت فئة كثيرة بـاذن

---

(١) التوبة ١٢٢
(٢) الانفال ٦٠

الله ذلك لأن شعارها النصر على الاعداء أو الشهادة ، والحرص على الموت حرص العدو على الحياة طبقا للقاعدة " احرص على الموت توهب لك الحياة "

وفي نهاية المطاف نوجز أهم النتائج والتوصيات التي توصلنا اليها من خلال هذه الدراسة المقتضبة على النحو التالي :

أولا : النتائج :

١) أهمية التدابير الامنية في حياة الدعوة الاسلامية ، في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم .
٢) الجانب الاخلاقي الذي يدل على تسامح الاسلام والذي كان متوافراً في كل التدابير الامنية في غزوة الفتح .
٣) حرص الدولة الاسلامية منذ تأسيسها في المدينة على حماية أمن الدولة وأمن الدعوة ، فلا ينفصل أمن الدعوة عن حماية الدعوة .
٤) اهمية الجهد الفردي في صيانة الامن كأختياره صلى الله عليه وسلم لبعض صحابته للقيام ببعض الادوار للاستطلاع أو جمع المعلومات أو التفاوض مع الاعداء .
٥) ابراز الدور الذي كان يقوم به رجال الاستطلاع والعيون في الامن الخاص بالدولة والدعوة ، وبأهداف يمكن الاستفادة منها في حياتنا المعاصرة ، لانها تلتزم بقيم الاسلام وتعاليمه .
٦) اهمية السرية والكتمان في بعض التدابير الامنية لما لها من دور فعال في عدم معرفة اي معلومات عن حقيقة القوى الاسلامية .

ثانيا : التوصيات :

١) ضرورة عناية الباحثين بالتدابير الامنية في كل الغزوات الاسلامية خاصة وأنه اثناء قيامي بهذا البحث وجدت ان المراجع في هذا المجال نادره وشحيحة .

٢) ضرورة تحقيق كتب التراث الاسلامي التي تتعلق بالغزوات الاسلامية وهي كثيرة لا تحصى ولا تزال مخطوطة .

٣) ارى تدريس مادة خاصة بالتدابير الامنية الاسلامية وتاريخها في الاسلام في جامعات الدول الاسلامية خاصة في اقسام الحسبة والدعوة ، وفي الكليات العسكرية .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

المصادر :

قد تم ترتيبها حسب ورودها من خلال البحث

١ – القرآن الكريم

٢ – المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم محمد فوّاد عبدالباقي ، مطبعة الشعب ٣٧٨

٣ – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ابو الحسن الندوي الطبعه (١٣) الكويت

٤ – العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، محمد فرج ،الطبعة الثالثة ١٩٧٧ ، نشر دار الفكر العربي .

٥ – سيرة محمد سير وليام موير

٦ – الابطال توماس كارليل

٧ – دعوة الاسلام السيد سابق ، طبعة دار الفكر ١٣٩٨ هـ

٨ – في ظلال القرآن سيد قطب ، الطبعة العاشرة ١٤٠٢ ، دار الشروق ، بيروت القاهرة .

٩ – السلام رسالة السماء ، محمد النبوي الشال ، الطبعة الاولى

١٠ – الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المباركفوري ، من منشورات رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة .

١١ – السيرة النبوية عبدالملك بن هشام الحميري ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ

١٢ – مختصر سيرة الرسول ، الشيخ عبدالله النجدي ، المطبعة السلفية بمصر

١٣ – تفهيم القرآن لابي الاعلى المودودي ، نشر مكتبة الجماعة الاسلامية بالهند

١٤ – سيرة ابن اسحاق ، تحقيق وتعليق محمد حميد الله

١٥ – مختصر سيرة ابن هشام ، اعداد محمد عفيف الزعبي ، نشر دار العلم للطباعة جدة

١٦ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبدالحي بن العماد ، مكتبة القدس ١٣٥٠ هـ

١٧ – تهذيب سيرة ابن هشام ، محمد محي الدين عبدالحميد ، القاهرة ،مطبعة حجازي

١٨ – تاريخ الامم والملوك ، ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، الطبعة الاولى ، المطبعة الحسينية المصرية .

١٩ – السيرة النبوية ، عبدالملك بن هشام الحميري ، طبعة دار احياء التراث العربي/ لبنان ، محقق .

٢٠ ـ المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم ، محمود شيت خطاب

٢١ ـ المصباح المنير ـ وترتيب القاموس ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت .

٢٢ ـ اساس البلاغة ، محمود بن عمر الزمخشري .

٢٣ ـ السيرة النبوية لابي الفداء اسماعيل بن كثير ، تحقيق مصطفى عبدالواحد ٤٠٢ هـ دار المعرفة بيروت .

٢٤ ـ فتح القدير ، شرح الهداية ،الكمال بن الهمام مع حاشيته ،طبعة بولاق ١٣١٥

٢٥ ـ تفسير القرآن الجليل للامام أبي البركات عبد الله بن احمد النسفي ،المكتبة الاموية ، بيروت / دمشق .

٢٦ ـ آثار الحرب في الفقه الاسلامي ، دراسة مقارنة وهبة الزحيلي ، الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ دار الفكر .

٢٧ ـ البداية والنهاية ، لابي الفداء الحافظ بن كثير ، الطبعة الثالثة ، مكتبة المعارف ، بيروت

٢٨ ـ نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار ، محمد بن على الشوكاني ، المطبعة العثمانية المصرية ، القاهرة ١٩٥٧ م

٢٩ ـ شرح البخاري للعسقلاني المطبعة السلفية بمصر

٣٠ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، المطبعة السلفية بمصر ١٣٨٠هـ

٣١ ـ نهاية المحتاج الى شرح المنهاج ،شمس الدين محمد بن أحمد الرملي ، المطبعة البهية المصرية ١٣٠٤ هـ

٣٢ ـ مقومات النصر في بدر الكبرى وفتح مكة ، محمد فهمي عبدالوهاب ، دار العلوم للطباعة ، القاهرة .

٣٣ ـ الرائد معجم لغوي عربي

٣٤ ـ تاريخ الرسل والملوك لابن جعفر محمد بن جرير الطبري ، الطبعة الاولى ،المطبعة الحسينية المصرية .

٣٥ ـ تحفة الاحوى بشرح جامع الترمذي الطبعة الثانية ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

٣٦ ـ الرسول القائد الزعيم الركن محمود شيت خطاب ، الطبعة الثانية ،مكتبة الحياة ومكتبة النهضة بغداد .

٣٧ ـ عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس ، الطبعة الثانية
دار الافاق الجديدة ، بيروت .
٣٨ ـ سيرة الرسول ، صور مقتبسة من القرآن الكريم ، الطبعة الاولى . عزة دروزة
٣٩ ـ الحركات العسكرية للرسول الاعظم في كفتي ميزان العميد الركن سيف الدين
سعد ال يحيى الطبعة الاولى ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت .
٤٠ ـ الاسلام والحرب لابي لبابه حسين الطبعة الاولى ١٣٩٩ هـ دار اللواء بالرياض
٤١ ـ القتال في الاسلام لاحمد نار دار الوفاء للطباعة ،المنصورة مصر
٤٢ ـ فن الحرب ، صن تزو ، تعريف محمود حداد ، الطبعة الاولى
٤٣ ـ حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، محمد حسين هيكل ، الطبعة الحادية عشرة
٤٤ ـ كتاب المؤتمر الرابع لمجموع البحوث الاسلامية بالازهر
٤٥ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير محمد بن
على الشوكاني ، نشر دار المعرفة ، بيروت
٤٦ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد ، لابن قيم الجوزية ، الطبعة الاولى ١٣٤٧ هـ
مطبعة الحلبي بالقاهرة
٤٧ ـ لسان العرب ، محمد بن مكرم جمال الدين بن منظور ، القاهرة ١٣٠٠ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

التدابير الأمنية في غزوة الفتح

الفصل الثاني

الفصل الثالث : التدابير الامنية في غزوة الفتح

